الحائر

رواية

تامر محمد عزت

الحائر
٩٩١٢/ ٢٠١٤ ط١
الترقيم الدولى / ٩- ١٠٠ - ٨٥٤ - ٧٧٩ - ٨٧٩
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
الإشراف العام / إيمان سعيد
رئيس لجنة قراءة د/ سالم ابراهيم سالم
مدقق لغوي أ/ محمد فهمي
المراسلات : ٤٢ ش سيد درويش
كوم الدكة - إسكندرية
ت : ٧٢٣٢٧٢٤٢٢١٠
: ٢٣٦١٦٦٢٢٠١٠
moc.liamg@ettilil.raD
moc.liamg@gnihsilbupettelil

الإهداء

إلي زوجتي العزيزة.. مي

إلي فلذات أكبادي.. أحمد ولارا

شكر خاص

إلي أصدقائي الذين دعموني بالتشجيع
(بالترتيب أبجدي)
د. أحمد فرج ضرغام
أ. أميمه ماهر
أ. أحمد فوزي
أ. محمد عصمت
أ. مصطفي عصمت
د. مي مراد
د. محمد الجندي
أ. نهي محمود
د. هاني قطاريه
د. وائل السيد

(١)

المملكة العربية السعودية :

خلع د. سامي (طبيب الباطنة) نظارته الطبية ووضعها أمامه على المنضدة ووقف أمام النافذة متأملا الطبيعة من حوله والتي تتمثل في الحديقة الصغيرة التي أمامه وتطلع إلي السماء فوجد سرباً من الحمام يسبح في الفضاء بشكل منتظم ثم ارتشف رشفة من فنجان القهوة وهو يفكر ، فهذه هي فترة الاسترخاء له قبل أن يتواصل لفحص المرضي في العيادة التي تتبع المستشفي الحكومي السعودي التي يعمل بها ، وكما هو عادته مازال تعاوده ذكرى أصدقاءه القدامى ، أصدقاء المراهقة والشباب فقد كانت صحبة طيبه خالية من أي سلوك غير أخلاقي ، وبالقطع كلهم غرقوا في دوامة الحياة التي لا ترحم ، وكل أصبح له طريق يسير عليه رغم أنفه

بعد أن انتهي من العيادة فكر في كيفيه استعادة أصدقاءه مرة أخري ، ومن خلال السؤال بين أصدقاءه الشباب في المستشفي

أخبروه بموقع التواصل الإجتماعى الشهير " الفيس بوك " وأن التسجيل به سهلاً بمجرد إضافة بعض البيانات البسيطة ، وبعد عودته إلي منزله أخبر زوجته التي تعرف خبايا الشبكة العنكبوتية فهو شغلها الشاغل آناء الليل وأطراف النهار وبالفعل قامت بعمل له حساب شخصي وبعد أسبوع من الإضافات كانت المفاجأة السعيدة أنه وجد اسم صديقه ماجد شاهين علي يمين الشاشة لأنه صديق مشترك مع بعض الأصدقاء الذي تم إضافاتهم حديثا .. وتساءل بينه وبين نفسه هل هو فعلا صديقه ماجد ؟ صديق الشباب ؟ هل هذا الموقع الالكتروني سريع إلي هذا الحد للبحث عن المعارف والأصدقاء ؟

قام بفتح ملفه الشخصي ومن خلال صوره عرفه.. انه هو.. طار من السعادة وهمّ أن يرسل له رسالة وكما علمته زوجته وكتب فيها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. أخي الحبيب د.ماجد لا تعرف كم سعادتي بأن أراسلك بعد مرور هذه السنوات ورأيت أحدث صورك فأنت لم تتغير كثيرا فأنت كما تركناك وأعذرني أنني لم أعرف بهذا الموقع إلا عندما اشتقت إلا أصدقاء الشباب ، فلقد هربنا من حياتنا إلي حياة أولادنا كما تعرف ..وأتمنى أن يكون لديك معلومات عن الأحباب وليد وأدهم وسامح ..ولقد أرسلت إليكم طلب الصداقة لكي نتواصل سويا . صديقك ...سامي»

أغلق د. سامي جهاز الحاسب المحمول وتنهد وقال بين وبين نفسه (قد لا يعود الشباب يوما ولكن قد يعود بعودة الذكريات)

أنهي د. ماجد عيادة الأسنان بالمستشفي الحكومي السعودي التي يعمل

بها فهو أيضا في حالة سفر مثل د. سامي وباقي الأصدقاء ولكن من مميزات د. ماجد أنه علي اتصال بصديقيه سامح وأدهم ..وبعد عودته إلي منزله وأثناء انتظاره لوجبة العشاء فتح موقع التواصل الإجتماعى وسرّ سروراَ عظيماً لرسالة د. سامي عبد المقصود ورداً علي رسالته كتب فيها « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أخي الحبيب يا لها من مفاجأة طيبه ، والحمد لله أنك استعنت أخيرا بالمواقع الالكترونية ..فأنا أعلم أنا دائم العمل والقراءة وليس لديك وقت لهذه الرفاهية ، أُبشرك بأنني علي تواصل مع سامح وأدهم ..وإن كان أدهم مثلك ليس من هواة هذه المواقع ..سأبلغهم ونتواصل سويا ...عوداً أحمداً «

تم التواصل بين الأصدقاء خلال فترة بسيطة ما بين الموقع الإلكتروني وما بين الاتصالات الهاتفية .. فالأربعة يعملون في المملكة العربية السعودية ولكن في محافظات مختلفة .. وهكذا أرسلت الشبكة العنكبوتية الإلكترونية خيوطها الغير مرئية ليتجمّع الأصدقاء الأربعة مرة أخري عرف سامي أن سامح أصبح مشرفاً في شركة غذائية بعد أن كان مندوباً للمبيعات وترقي حتى وصل إلي هذا المنصب.. وأخبره أن أدهم يعمل محاسباً في شركة مقاولات تجارية وهو أيضا ناجحاً ومجتهداً في عمله لذلك ليس لديه الكثير من الوقت أن يتابع الإنترنت ..

وتابع د. سامي السؤال عن صديقهم الأخير وليد إبراهيم المنسي فأخبره أنه كان جار أدهم ولا يعلم عنه شئ وأنه اختفي من حياتهم تماما.. فالجميع غادر البلاد منذ سنوات سعد الجميع بقرار د.

سامي أنهم سيتقابلون في الأجازة الصيفية المقبلة في مصر أثناء شهر رمضان الكريم والمكان المُفضل لديهم هو «مقهى المحطة» والذي شهد سنوات الشباب .. بينما كانت المحادثات لا تنقطع بينهم طوال فترة إقامتهم بالمملكة ..كان د. سامي مشغولاً بصديقهم وليد ..

وأيضا د. ماجد كان يستعد بشكل آخر فهو آخر إنسان تقابل مع وليد عندما كان يعمل معه في عيادته التي أستأجرها ماجد قبل سفره

****

فتح ماجد حقيبته الخاصة والتي تشمل كل أوراقه الرسمية ومستندات موثقة.. التقط من بينهم دفتراً صغيرا بأعداد ورقية قليلة ومكتب علي غلافها الخارجي عنوان.. " الحائر " وتحتها كُتب بخط صغير د/ وليد إبراهيم المنسي

تذكر ماجد أن وليد ترك هذا الدفتر بعد أن غادر العيادة فجأة ولا يعلم هل كان مقصوداً أم لا ..وخصوصا أن الدفتر ممزق منه بعض الأوراق.. وأن في آخر الدفتر ورقتان تحمل عنوان «الحلم».. ولم يستطع تفسيره

للمرة الخامسة سيفتح ماجد بقايا وليد.. كما يقول ماجد عنها دائما ..فهي عبارة عن مذكرات شخصية تُعبّر عن حيرته وآلامه وذكرياته.... فهي محطات هامة في حياته، فتح ماجد وبدأ يقرأ :

" مابين السقوط وقليل من الاتزان .. بدأت أستعيد توازني بعد أن سرت في طريق غير ممهد طوال السنوات الماضية، وها أنا ذا أُفرغ حبر قلمي علي هذه السطور لتسجل ما كان بي من ألم وحزن ، فقد كنت في حالة من الحيرة والتوهان لم أكن شاباً عادياً مثل باقي الشباب ولم أفهم لماذا إلا مؤخرا، لقد كنت مثل التمثال اليوناني بلا حدقات أكاد أستطيع الرؤية ، فقد كانت الرؤية باهته وبلا مرونة كافية ، لم يكن لدي ذكاءً روحانياً ، نفسي قادتني إلي الصدمات والحيرة ..وكانت الحيرة الكبرى مع والدي الأستاذ إبراهيم المنسي ، كانت علاقته بي علاقة سلطوية عالية الديكتاتورية ، لم يعطني الحرية أبداً حتى في الحب.. ولكنني الآن أعمل مع د. ماجد صديقي كطبيب أسنان في عيادته التي أستأجرها، وحتى لا أسبق الأحداث سأكتب المحطات التي وقفت بها والتي كانت لها أثراً في حياتي، أعلم إنني سطر في كتاب وكلنا سطور تُدون علي مر الزمان سألت يوما د. محمد شحاته (لاحقا سنعرف من هو): لماذا الحيرة ؟ ولماذا تستغرق مننا كل هذه السنوات ؟

فأجاب : الحيرة هي بداية الحكمة وما من حكيم إلا وأصابته الحيرة في أمر البشرية صدقت يا د. محمد ..ولكن حيرتي مع والدي لم تعطي لي الحكمة فقد أعطتني الاضطراب والقلق والهروب من الناس سأستعيد رحلتي بقطار عمري وسأقف به عند عدة محطات حتى أصل إلي هذه المحطة التي أنا بها الآن» انتهي ماجد من قراءة هذه السطور علي أمل أن يلتقي بصديقه وليد ويعرف إلي أين وصل به القطار وفي أي محطة

مصر
مقهى المحطة

كان اللقاء المرتقب حاراً كحرارة الصيف ودافئاً كشمس الشتاء ومشتعلاً بالذكريات والكل تَفرّس التغييرات التي حدثت لكل فرد منهم ، فأدهم كانت نصيبه شئ من البدانة بسبب جلوسه المستمر في مكتب العمل، أما سامح فقد اشتعل بعض شعرات الرأس شيباً ، وسامي أصبح وجهه أكثر جديّه بسب ولعه بالقراءة مما أعطي لمحة التأمل في عينيه، أما ماجد فهو الشخص الوحيد الذي حافظ علي نحافته

قال سامي : (إن موقع التواصل الإجتماعى اختراع هذا القرن ليجعلنا نجتمع مرة أخري بعد كل هذه السنوات.. كل عام وأنتم بخير فبعد غدٍ هو أول أيام رمضان المبارك...)

ماجد : (وأنت والأسرة الكريمة بخير ...ولعل أدهم سوف يتنازل قليلاً لهذه الأمور الإلكترونية)

أدهم : (من الواضح أنني سأستسلم أيها الأصدقاء وأريد من يعلمني)

سامح : سأعملك يا صديقي المحاسب ...

وبعد برهة من الوقت سأل سامي : هل من أخبار عن صديقنا وليد ؟ أجاب الجميع بالنفي ..

ثم قال أدهم : لا عليكم إنه جاري القديم وغداً إن شاء الله سوف آتيكم به بعد أن أعرف مكانه الجديد ...

لم يعرف أدهم أن البحث عن وليد كان ممكناً إنما أن يجده ويراه كان مستحيلاً ..

****

بعد صلاة التراويح لأول ليلة من ليالي رمضان اجتمع الأصدقاء في نفس المقهى بدون صديقهم الخامس مما أعطاهم تأكيداً علي فشل أدهم في مهمته ولكن صمت أدهم بينهم أثار حوله الشكوك ولفت الانتباه مما أدي إلي أن سامي سأله : ماذا بك يا أدهم ؟ ماذا فعلت ؟ إنك غير سعيداً هذه الليلة ...

أفاق أدهم من شروده وتسارعت نبضات قلبه لدرجه أنه خشي أن يسمعها الآخرين وقال بارتباك : لقد ذهبت عصر اليوم إلي بيت وليد القديم وسألت أحد الجيران وأخبروني ببيتهم الجديد الذي نقلوا إليه منذ سنوات وبالفعل أخذت العنوان وذهبت إلي هناك ...ولكن من حظي العسر أنني كنت تائهاً ولم أعرف كيف أهتدي

إليه وسألت كثيرا ولم يعرفه أحده وكأنهم غير موجودين من الأساس وقبل أن أيأس سألت صاحب أحد المحلات عن وليد إبراهيم المنسي ...فقال انه في الشارع المقابل.. وذهبت فلم أجد شيئا حتى أخبرني أحدهم وهو صاحب محل سوبر ماركت صغير أن البيت مغلق منذ عدة سنوات ولا يوجد أحد به وأشار إلي ناصية المكان.. وبالفعل ذهبت إليه ووجدته مغلقاً بسلسلة حديدية وعليها قفل يكاد أن يصدأ وهذا دليل علي عدم وجودهم منذ فتره طويلة جدا، وعدت إلي صاحب المحل لأعيد السؤال عليه وعلي صديقي وليد وأخبرته أنه كان طبيب أسنان ...وتذكر...وكنت أود أن لا يفعل.. قال ماجد وقد قلق : ماذا هناك يا أدهم ؟

سامي : هيا يا أدهم .. أخبرنا بالله عليك صمت أدهم ثم قال وعينيه تكاد تدمع : البقاء لله ....وليد مات وقعت الصدمة علي رؤوس الثلاثة كقذيفة مدوية أفقدتهم النطق ...وكأن الأرض ابتلعت من بجوارهم فكان الصمت صديقهم الخامس بعد عشر دقائق سأل سامي في ذهول : كيف ؟ ومتى ؟

قال أدهم : إنني بالكاد عرفت البيت وبالتأكيد لم أعرف فكأنهم كانوا ضيوفا علي الناس من حولهم وغادروا ..هناك لغزاً محيراً في الأمر

سامح : لماذا ؟

أدهم : لأن هناك من سألته من الجيران ولم يرد أن يقول شيئا ولكنني من نظرة عينيه علمت أن هناك شيئاً.

عاد الصمت يُخيم عليهم من جديد.. وتذكر الجميع مواقفهم مع وليد منذ أن عرفوه في المرحلة الإعدادية والثانوية ...وكيف كان اضطرابه وحيرته عائقاً له في بعض الأمور وان فراقهم في المرحلة الجامعية كان بداية الفجوة التي حدثت إلا أن هناك أحداثاً مشتركه قد تجمع بينهم بين الحين والآخر

قطع صمتهم ماجد قائلا : لا أعلم ماذا أقول ؟ لكن لديّ شغف حقيقي لمعرفة ما قصة وفاته ، وخصوصا أن لديّ بعض من بقاياه وهي مذكراته التي تركها في العيادة منذ زمن بعيد ...وتحمل عنوان «الحائر» إنني محتفظ بها وقرأتها عدة مرات ولابد أن تعرفوا ما بها

سامي : إذن عليك بها من الغد وتقرأ لنا ما بها لعلنا نهتدي إلي طرف الخيط الذي يدلنا علي لغز وليد.

قال سامح متعجباً : لو تفضلتم ..لماذا ظننتم أن موته لغزاً ؟ أليس رحمه الله عاش ومات مثل أي إنسان ! ما الداعي للعبث في موته ؟ قال سامي بهدوء شديد : أوافقك الرأي ولكن وليد لم يكن مجرد صديق عابر إنه كان به شئ يجذبنا ناحيته دائما فقد كان بمثابة دينامو الحياة..كل منّا به جزء من شخصية وليد..كأنه أخذ الحيرة والاضطراب لنفسه لنحيا نحن.. وحتى أبسّط لك الأمر إنني أشبه بمن يسير أمامنا في الطريق ويتعثر ثم ينصحنا بأن لا نسير فيه حتى لا نتعثر مثله أنا شخصيا فعل ذلك معي.. وبالتأكيد أنتم كذلك.. غير أن حدسي يُخبرني بأن هناك أمراً خفياً وعلينا معرفته

أومأ الجميع رؤوسهم بالإيجاب.. ثم واصل كلامه وعينيه شاردة إلي بعيد : من الغد سنعرف ماذا حدث لوليد وخصوصا أن له قصة معي منذ بداية حياته .. وكأن سامي انقلب فجأة إلي المفتش سامي وهم المغامرون الثلاثة للبحث عن لغز «الحائر»

(٢)

عاد سامي إلي منزله والحزن يملأ رئتيه مما جعل صدره ضيقا حرجا يكاد يلتقط الأكسجين بصعوبة ولاحظت زوجته هذا الأمر وبشغف المحبة سألته بقلق : ماذا بك يا حبيبي ؟ أجاب : حالتي النفسية سيئة جدا فقد خسرنا أحد أصدقاء العمر الذي حكيت لكي عنهم سابقاً ، هؤلاء الصحبة كانوا ومازالوا صحبة صالحة وملتزمة ، وبعد أن علمنا أن واحد منا ذهب بلا عودة قد سبب لنا آلاماً مبرحة داخلنا، كأنه خنجرا مسموما نفذ إلي القلب وقتلنا جميعا

قالت الزوجة بحزن : رحمه الله فأنت مؤمن بقضاء الله.. وكنت أريدك أن تقص عليّ بعض هذه المذكرات لعل هذا يُخفف من آلامك وأحزانك استعاد سامي بعض اتزانه وتنهد تنهيده عميقة ثم قال: بداية معرفتي بوليد كانت في الصف الثالث الإعدادي فقد كان مميزا بكثرة أسئلته عندما كنّا بالصف الدراسي فهو يريد أن يعرف دائما ..وتعرفت عليه وعلي أصدقاءه الذين هم أصدقائي الآن ماجد وأدهم وسامح ...فقد كنا في فصل واحد المدهش في الأمر أننا وجدنا شيئا مشتركا بيننا وهو حب القراءة والمعرفة وكنا نتبادل مجلات الشباب

والعـربي وبعـض القصـص مثـل رجـل المسـتحيل وغيرهـا.. ولم يكـن غريبـا أن يصبـح ترتيبـه الثالـث عـلي مسـتوي المدرسـة بعـد الامتحانات النهائيـة للصـف الثالـث الإعـدادي فقـد كان ترتيبي الأول.. مما أدي إلي توطيـد الصداقـة بيننـا حتى وجدتـه وبشـكل مباغـت وخصوصـا بعـد أن ابتعـد عـنّي لفـترة انـه يفكـر في أمـور عجيبـة وغريبـة خاصـة بالحـلال والحـرام !

****

في هـذه الأثنـاء كان ماجـد قـد عـاد إلي مـنزله وقبـل تنـاول وجبـة السـحور أراد أن يلتقـط بـصره بعـض الحقائـق عـن وليـد مـن مذكراتـه الشـخصية وقـرأ

• المحطة الأولي"

الكتاب ذو الغلاف الأحمر :

بعد انتهائي من المرحلة الإعدادية لم أكن أتميز بشئ غير الحصول علي ترتيب الثالث علي مستوي المدرسة وأنني من محترفي لعبة كرة القدم بشهادة مدرس التربية الرياضية وبعض المعلمين لدرجة أنهم تصوروا أن الكرة خُلقت من اجلي ولهذا قد انضممت لفريق المدرسة في المرحلة الإعدادية ومن بين أصدقائي من محبي كرة القدم هو ادهم ولو أنه سار في هذا الدرب لأصبح لاعبا محترفاً بجدارة ومن هواياتي أيضا حُب القراءة والولع بها وكنت من هواة قراءة القصص التي انتشرت بيننا في مثل هذا الوقت كرجل المستحيل والمكتب رقم ١٩ والمغامرون الخمسة.. ولكنني أردت التميز فاتجهت إلي مكتبة والدي تلك المكتبة التي تضم عدد لا بأس به من الكتب الدينية والثقافية والفكرية والقصص والروايات.. التقطت عدسة عيني كتاباً ذو غلاف أحمر ..كان الوحيد المُغلف بهذا الغلاف.. وتحركت أصابع كفي الأيمن سريعا لأحمله علي راحة كفي الأيسر، حالياً لا أذكر عنوانه ولا من مؤلفه..ولكنني أذكر أن محتوياته عن الحلال والحرام وحدث ما حدث

كنت على شاطئ الكتاب ووجدت نفسي أنجرف إلي داخله حتى وصلت إلي العمق وغصت تحت عباراته وجمله المتقلبة كأنها أمواج عاتية لا تهدأ ...حتى غرقت وحاولت إنقاذ نفسي حتى صعدت لأعلي وبصعوبة شديدة قمت بالسباحة ضد التيار الفكري حتى وصلت إلي الشاطئ فإذا به ليس الشاطئ الذي كنت به إنما شاطئ أخر انه شاطئ المحيط الديني الواسع وقمت بصعوبة فأنا مُجهد نفسياً وعصبياً لأجد نفسي وحيداً بلا مظلة أستظل بها ولا منُقذ فأكملت سيري لأبتعد عن الشاطئ لأجد نفسي في صحراء جرداء.. فقد اكتشفت أننا نعيش في الحرام !!

بدأت الحيرة الحقيقية تعلو رأسي وتحتل فكري وانشغل عقلي وبدأ الصخب والعنف والهجوم والكُفر بيني وبين نفسي اعتزلت أصدقائي، أقللت من لعبة الكرة ، وفرضت علي نفسي عزلة ابتدعتها لم يكتبها ولم يفرضها عليّ أحد وفي هدوء نشأ بركانا بداخله حمم تكفيرية ..لكنه بركانا خامدا لم ينفجر بعد في هذا الصيف لم تعرف سفينتي الحائرة شاطئا لكي ترسو فيه ماهو شاطئ النجاة من هذه البحار والمحيطات التي أخشي منها إذا سُجرت في أي وقت ؟ ما هي الواحة التي ستنقذني من سراب الصحراء ؟

من المنقذ؟ أهو أبي؟.. لا اعتقد ليس لي شيخ أعود إليه إنني بالكاد أصلي صلاة الجمعة تذكرت صديقي سامي ..فهو ذو معرفة ويحب القراءة والإطلاع لعله يكون شاطئ النجاة ...سبحت إليه في سفينتي الحائرة التي تتمايل في بحر ملئ بالأمواج المضطربة والعنيفة

أكمل سامي لزوجته قائلاً : جاءني وليد بوجه غير الوجه الذي نعتاده عليه آثار اضطراب وقلق لم نعتدهم عليه من قبل وعندما سألته أجاب : (إنني أعيش في الحرام ...إنني تلطخت بالوحل) ثم أكمل استهزاءه بنفسه وبتعليمه وبترتيبه الدراسي وأن ما يتعلمه هو الضلال بعينه وكل ذلك بسبب كتاب أوراقه صفراء بلا مرجع ديني حقيقي وبداخله سُموم عقائدية قفزت داخل أوردته الفكرية وقتلته ...في هذا العمر المبكروطلبت منه هذا الكتاب لأطلع عليه

****

استكمل ماجد قراءة مذكرات وليد.. التحقت بالمرحلة الثانوية وأُضيفت إلي قائمة أصدقائي أعضاء جدد من محبي كرة القدم وكانوا ملاذا حقيقيا للهرب من شواطئ الحيرة التي كنت أذهب إليها كل فترة وأخري ونسيت تماما أن أرسل الكتاب إلي سامي و لعلي أسأل الآن نفسي.. لماذا لم أذهب إلي أبي في ذلك الوقت ؟ ولماذا ابتعدت بالتفكير عن السؤال عن هذا الكتاب ؟

لعلي عندما كبرت قليلا أدركت أن أبي لم يكن يقرأ من الأساس وأن هذه المكتبة ما هي إلا من كماليات البيت ، وللتباهي أمام الآخرين أن لديه مكتبه ! لعل هذا ما ترسب في عقلي الباطن وبشكل طبيعي لم أذهب إليه.. والدي كان عصبياً وديكتاتورياً وأن لدية صفة من صفات النمل وهي (الجمع) فهو يجمع الكتب ولكنه لم يستفيد منها ولم يفيد غيره لا أنا ولا أخوتي ولا أمي..ولعله لا يعلم بوجود هذا الكتاب من الأساس ..فهو موظفاً حكوميا ، روتيني الطبع، حاد

المزاج.. وهذا أوجد فجوة بيني وبينه

اصطحبت عدم إيماني بالتعليم الذي كنت فيه حتى أول يوم اختبار النصف الأول من الصف الأول الثانوي ويومها حدث موقف لم يعرفه إلا صديقي المؤتمن علي بعض أسراري وهو سامي

****

أكمل سامي حواره مع زوجته أثناء تناول وجبة السحور قائلا: وليد للأسف بادر بالغش في أول يوم اختبار وكشفه المراقب وكاد أن يكتب محضرا بالغش لولا تدخل وكيل المدرسة الذي كان له بُعد نظر وبالفعل ذهب وليد بعد أداء الاختبار وبعد عدة أسئلة عرف انه من أوائل المرحلة الإعدادية و استفسر عن الذي أدي به إلي الغش واستفسر عن إن كان هناك مشاكل في البيت أو ما شابه ولكن وليد لم يقل شيئا ..وحذره بتكرار هذا الفعل وان عليه أن يجتهد حتى تمر هذه الفترة علي خير أستكمل ماجد في مذكرات وليد بين أصدقاءه وقرأ : بصراحة خِفت من والدي ومن استدعاءه فالتزمت الصمت وقبلت بالوضع مؤقتا.. وتمر الشهور ونصل إلي عيد الفطر المبارك في مارس ١٩٩٤ حيث اتفقنا علي الذهاب إلي السينما ..

ما تميزت به مجموعتنا هو عدم الاقتراب من الدخان ولا المخدرات ولا الفتيات وبالفعل يومها دخلنا لنشاهد فيلم (الإرهابي) لعادل إمام، وخرجنا من الفيلم وقد ظن احدنا أن السينما ستنفجر بنا وخرجنا

مـن دار العـرض السـينمائي وانتقلـت إلي عـالمي مـرة أخري..عـالم الحـلال والحرام..فعقـلي المحـدود آنـذاك صـوّر لي إن الفيـلم الـذي شـاهدته منـذ قليـل هـو الواقـع الحقيـقي.. !!

رسـت سـفينتي مـرة أخـري عـلي شـاطئ الحيرة وأمـام البحـار والمحيطـات والأمـواج المتقلبـة.. تقمصـت شخصيـة «الإرهـابي» عصـبي المـزاج، مقتضـب الوجـه، عابـس آناء الليـل وأطـراف النهـار..وثار البركان بداخـلي وألقيـت بحممـه التكفيريـة وأحرقـت الجميـع.. وبـدأت ألـقي بشرائـط التسـجيل التـي بهـا الأغـاني المتنوعـة في سـلة المهمـلات.. وقاطعـت التلفـاز ذو القناتـين اليتيمتـين.. أشـعلت بعـض حرائـقي في غـابات خـضراء لم تكـن لهـا أي ذنـب وتعاملـت مـع إخـوتي البنـات عـلي أنهـم جراثـيم يسـتحقون الإبادة وأمي المسكينة كانـت حـائرة في أمـري ومـا كان رد فعـل أبي سـوي الضحك..ويقـول لدينـا إرهـابي في المـنزل وانـه سـيبلغ الشرطـة للقبـض عـليّ .. هاهاهاهـا بسـخرية أبي ازددت توهجـاً ونقلـت عنـفي إلي المدرسـة.. حـتى وصـل بي الحـال إلي اسـتدعاء مـن مـدير المدرسـة .. وهنـأت حـالي بالرفـد

ذهبـت إلى حجـرة مـدير المدرسـة.. واسـتقبلني المـدير بابتسـامة جميـلة كانـت لهـا تأثـير في نفـسي وقـام وسـلّم عـليّ وأجلسـني في المقعـد المقابـل له ...لم يجلس خلف المكتـب ..طلـب لي كـوباً مـن الشـاي، وبـدأ الحديـث حـول الأهـل والمدرسـة و الدراسـة..حتى انتقلنـا إلي عـالمي الجهنـمي

وبهـدوء قـال: قـل لي يا وليـد هـل تصـلي الفـروض الخمسـة في المسـجد؟ أجبـت بالنـفي ثم أردفـت قائـلا: أبي لم يعلمـني ولم يذهـب مـعي إلى المسـجد

ولا علمني الصلاة بالبيت إنه.. آثم.

ابتسم وقال لي: لا ليس كذلك..إنما نقول كان مُقصراً، دعني استفسر عن من هو الشيخ الذي تسير خلفه أنا باندهاش : لا يوجد سأل:: لمن تقرأ ..؟

أخبرته : لا أقرأ لأحد سأل: ألك ورد يومي من القرآن الكريم ..؟

أنا: لا

هو: أتعرف شيئا عن السنة النبوية الشريفة.

أنا: لا

اعتدل في جلسته وقال:

إذن أنت لا تقرأ القرآن ولا تعرف شئ عن السُنّة وليس لديك مرجع كتابي ولا شيخ تعود إليه ولستَ طالباً للعلم.. إذن لماذا كل هذا الإزعاج؟ انتبهت من غفلتي.. ولم أرد عليه

قام من مقعده وجلس علي كرسي مكتبه وقال:

ابني العزيز (وليد) أعرف أنها مرحلة حرجة بحياتك، المراهقة لها أشكال وألوان مختلفة وقد تكون اخترت الشكل الديني أو ميولك واتجاهاتك هو ذلك الاتجاه الديني العفوي ولا ألومك فغيرك اختار المخدرات وآخرين اختاروا الضياع ، ولذلك فعليك مصاحبة أستاذ وأن تتعلم وأن تصبر، ينقصك الكثير من مدرسة الحياة والمجتمع المحيط بك ولا تلوم الأهل كثيرا وحاول أن تجذبهم إلي طريق الإيمان وهم بخبرتهم

سيساعدونك .. وأعتقد أنه سيكون مستقبلك أكثر وعياً وفهماً شكرا جزيلاً علي وقتك يا ابني العزيز ..ونأمل أن تكون من أوائل المدرسة هذا العام

" خرجت من عند سيادة المدير وصحبتني كلماته الأبوية ...وهدأ ذلك البركان الخامد والغشاوة التي علي عيني تم إزالتها وعُدت طبيعيا نوعاً ما، استأنفت دراستي بالصف الأول الثانوي ولم يعرف أحد بهذا الحوار الذي حدث..

****

أغلق ماجد المذكرات بعد أن وصل لنهاية هذه المحطة

قال سامي : لقد تعايشت مع وليد هذه الذكريات كما كتب ولكن اندهاشي هنا أنه عاد طبيعيا بعد كل هذا الوصف الذي وصفه.. إن في هذا الأمر سراً سنكتشفه لاحقاً

أدهم : أعتقد أنه بعد ذكره لكرة القدم واصطحابي معه مع هذه المجموعة الجديدة التي عرفها ...أنتم لم تعرفوا من هم ؟

ماجد : تقصد الإخوان المسلمين ؟

أدهم : وهل ذكرهم في مذكراته ؟

ماجد : بالفعل ...

سامي : إذن نلتقي غدا ونعرف التفاصيل ....

عاد أدهم إلي منزله وعادت ذكرياته .....

المحطة الثانية
(كرة القدم الإسلامية)

«وطدت صداقتي مع المجموعة الجديدة التي اخترتها في الصف الأول الثانوي ، مجموعة طيبة وكانت الهواية المشتركة هي كرة القدم ولم أنس أصدقائي الآخرين بل اصطحبت معي صديقي أدهم بحكم أننا جيران بالإضافة إنه الوحيد الذي يحب لعب كرة القدم أيضا ...

وبالقطع كنا نبحث عن مكان نلعب فيه بدون أي مضايقات من أحد ويبدو أننا وجدناه بالرغم من بُعد المسافة،

أرض فضاء واسعة جدا تصلح لأن تكون إستاد و ملعب لكرة القدم، وتعرّفنا علي مجموعة أكبر منا عمراً ويبدو عليهم أنهم شباب جامعي، ويبدو أيضا أنهم يعرفون عدد من أصدقائنا وطلبوا منا الاشتراك معهم في دورة كرة القدم الإسلامية !!

لم نفكر كثيراً ووافقنا علي الفكرة ، لاضرر ولاضرار وأستفهم فكري البسيط...كيف تكون كرة القدم ..إسلامية ؟؟

كانت لدينا خلفية مسبقة عن هذه الدورات الكروية، تكون من عدة فرق وكل فرقة بها عدد معين من اللاعبين وكل لاعب يدفع مبلغا من المال. .يتم تجميعهم وشراء هدايا فرديه لكل لاعب من الفريق الفائز ولكن مع هؤلاء الأصدقاء الجدد كان الأمر مختلفا

فلابد من المقابلة يوم الجمعة الساعه٧ صباحا ويُشترط صلاة الفجر قبل الحضور، كان الأمر جديدا علينا تماما وبالفعل ذهبنا طبقا للشروط، لم نكن فرق كثيرة كما تخيلنا ووقفنا جميعا بجانب بعض وبدأ أكبرنا وهو (الزعيم) أو قائد الدورة الكروية - طويل قليلا وهادئ الملامح وحليق الذقن - وبنبره مطمئنه قرأ سورة الفاتحة ورحب بنا وأفهمنا أننا ممكن أن نلعب كرة القدم ولا نعص الله عز وجل!!

وأن دورتنا يُشترط فيها حفظ سورتين من القرآن الكريم (لا أذكر ما هما) وحفظ حديثين نبويين، وممنوع السباب والشتائم والقذف بالكلمات

وبالفعل تم استفتاح الدورة ولعبنا بالوقت المتاح وبعدها تجمعنا مرة أخري ثم تم دعوتنا من قِبل (الزعيم) وقائد الدورة الكروية في منزله مساءً ثم دعونا بأدعية جميلة وانصرفنا

****

وقبل الذهاب فكرت ملياً فيما رأيته باكراً، فهذه أول مرة نجد أسلوبا جديدا في طريقة اللعب، وباعتباري لعبت كثيراً في شوارع المدينة لم أر مثل هذا الهدوء والاتزان والعقل.. وتذكرت حواري مع أحد مدرسين

الدراسات الإسلامية أو كما نسميها (مدرس مادة التربية الدينية (عن الكرة وهل هي حرام أم لا؟

وكانت الإجابة أن حرام أن لا نلعبها فهي تُخرج الطاقة التي لدينا ونتعرف علي قوانين لعب جماعي بالإضافة إلي تنمية الموهبة وممارسة الرياضة والدين حثنا علي الاشتغال بكل ماهو مفيد. وبالفعل ذهبنا إلي الصديق الجديد الأكبر عُمراً منا ، وكما أحب أن نجلس علي سطح العمارة، وبدأ التعارف ..بدأ هو بنفسه : أخوكم في الله (عماد) مدرس لغة عربيه حديث التخرج ..

لفت انتباهي جملة البداية) أخوكم في الله) ثم سرد معلومات عن نفسه جعلني أشرد قليلاً حتى أفقت من شرودي عند قصة توبته، وأنه كيف تاب وآمن وعمل صالحاً عندما وقفت في حلقه قطعة من التفاح كانت ستخنقه، وبعدها علم أن الإنسان لا يملك من نفسه شيئاً طلب من الحضور أن نتعرف علي بعضنا البعض، وعندما جاء دوري ..تلعثمت قليلاً فهذه أول مرة أقول (أخوكم في الله (ولأنه لايوجد حكايات كثيرة.. اكتفيت بالعمر والدراسة والهوايات كانت أمسية لطيفة وخفيفة ..وانصرفنا سعداء

****

أدهم لم يكن مرتاحاً لهذه الصداقة الجديدة وواجهني.. سألني مباشرة: هل ستُكمل هذه الدورة الكروية ؟

أجبته بالإيجاب وعلامة اندهاش علي جبيني لأسأل بدوري : لِمَ ؟

سأل مرة أخري: ألا تعرف من هؤلاء ؟
بدأ الغضب يظهر علي نبرة صوتي وسالت باستنكار :ومن هؤلاء ؟

ثم أكملت ..متحديا :

شباب متقفون ومُحترمون ويُحبون الآخرين، ويحبون لعب كرة القدم بطريقة رائعة ..ألا تذكر الأصدقاء القدامى والألفاظ البذيئة التي كانت تصم الأذن ..غير أننا سنحفظ ما تيسر من القرآن والأحاديث الشريفة والأجمل أنهم يشجعوننا علي ارتياد المساجد للصلاة ونحن لم نكن نعرفها إلا يوم الجمعة فقط ..ما العيب هنا ؟

بكل استنكار قال أدهم :
إنهم من (الإخوان المسلمين)
لا أعلم وقتها هل كان صديقي ينتظر منّي بعد أن يقول
(الإخوان المسلمين) أن أقفز من مكاني كأنني أصابني لدغة عقرب!!
وسألت بكل برود : وماذا في ذلك ..إخوان ومسلمين ..!!
رد بكل ما أوتي من قوة:

لا أقصد ذلك، إنما قصدت إنهم (إخوان مسلمين) جماعه دينية، تُشجع الشباب علي الالتزام ولكن نيتهم غير ذلك فيما بعد، والدي قال الكثير عنهم ولكن لا أذكرها وأذكر فقط التحذير منهم وإلا دخلنا (السجون)

بعد جدال ليس بالوقت الطويل ، تركني صديقي ودخلت في متاهة

جديـدة وكلمـة (السـجون) تـترد في أذني ..
وبدأت الأسئلة تحوم حولي
لماذا السجون ؟
هل السجن لأننا نلعب كرة القدم ؟
هل السجن لأننا سنحفظ جزء من القرآن ؟

هل لأننا سنصلي في المساجد ؟

وهـل . وهـل.. وهـل .. شـكرا يا صديـقي اللدود..فقـد انتصرت عـليّ، فقـد خِفت عـلي نفسي فعـلاً ولم أشأ أن أذهـب إلي أحـد وأسـأل عـن الإخـوان المسـلمين فقـد علمـت أن لهـا توجهـات سياسـيه

ولم أعـد أذهـب إلي اللعـب معهـم، وكانـت لـدي حجـه قويـه أنـني لا أسـتطيع أن أسـتيقظ مبكـرا ولم أجـد الوقـت لحفـظ سـورة مـن القـرآن ولا الحديـث

كانـت الثانويـة العامـة ذات النظـام الجديـد قـد اقتربـت والنظـام الجديـد عبـارة عـن عامـين مـن السـباق الماراثـوني للالتحـاق بالكليـة بعـد ذلـك ووالـدي تـكلم مـعي أنـني أمـله في الحيـاة وحـلم حياتـه أن ألتحـق بكليـة الطـب أو الصيـدلة ..المهـم أن أصبـح طبيبـا !

وأصبحـت في مفـترق طـرق مـا بـين حـلم العائلـة وحـلمي الخـاص أن أبتعـد عـن هـذا التعليـم، ازداد تـوتري وحـيرتي وذهبـت إلي الأسـتاذ عمـاد الـذي أقنعـني بأنـني عـلي خطـأ ...وأن عـليّ أن مواصـلة التعليـم وان هـذا مـن الإسـلام الـذي يحـث عـلي العـلم النافـع والعجيـب أنـني اقتنعـت !

سأل سامي : هل انضم فيما بعد يا ماجد ؟
ماجد : لا لم يفعل لأنه لم يكتب ذلك في مذكراته
وكأن سامي وجد شيئا فسكت للحظات ثم وجه كلامه
لأدهم : هل تكلمت مع وليد في ذلك الأمر لاحقا

أجاب أدهم بالنفي أيضا، ابتسم سامي فقد أكدت هذه الإجابات شيئا يدور في رأسه ولكن لم يحن الوقت بعد بالبوح بها

قطع أدهم صمت سامي وقال :

اعتقد أنه لم ينتمي إلي أي جماعه أو حزب سياسي أو أي تيار ديني فيما بعد ولو أنه من الطبيعي أن يفعل ذلك وخصوصا أننا عرفنا أن الفجوة التي كانت بينه وبين والده كبيرة ، الغريب أنه لم يفعل

ازدادت ابتسامة سامي بعد أن التقط كلمه (لم ينتمي) وقبلها (تقمصت شخصية الإرهابي) وأيضا وكلمة (السجون) تترد في أذنه. وحرك كل ذلك في رأسه وبحركات خفيفة دليل علي أن يقين من فهمه لأمر ما مازال يدور في رأسه ولكنه فضّل الصمت وكان لسامي أن يسأل :
ما علاقة وليد بأعمامه وأخواله ؟
ماجد : لقد كتب بالفعل عنهم ولكن...كيف عرفت ؟
ضحك سامي وقال : لا شئ ...فقط توارد خواطر
ماجد: في المحطة الثالثة يسأل عن صلة الرحم

قال أدهم : لقد تذكرت الآن سؤاله عن صلة الرحم

ماجد : نعم ...ذكرك في القصة

سامي محاولا لفك بعد من لغز وليد قال :

وليد حاول أن ينتمي للعائلة الشرعية ، العائلة الكبيرة ...مع أن في حالته في ذلك الوقت كانت من الممكن أن ينضم لأي تيار أو جماعه أو حزب ... فهو منتمي لوطنه الأصلي، حاول الجميع أن يفهموا شيئا ولم يفلحوا، فأشار سامي أن كل شئ بأوانه..قام الجميع و جلست الحيرة بدلا منهم

(٤)

" أتمني أن أتذوق حلاوة تلك الفرحة الآن مثلما تذوقتها بعد نجاحي الباهر في الثانوية العامة ، فقد هجرت شطآن الحيرة وأغرقت سفينتي في البحر وتحولت الصحراء إلي مساحات شاسعة من الزرع الأخضر بعد أن ارتميت في حضن والدي بسبب مجموعي الكبير الذي يؤهلني للالتحاق بكلية الطب »

قال سامي : بهذا المقطع من مذكرات وليد أكد لي شيئا هاما في شخصية وليد وعلاقته بوالده ...

سامح : وما هو ؟

سامي : لن أقفز فوق الأحداث وسأوافيكم بكل شئ لكن بالأدلة من خلال مذكراته

سامح: ولكنني أريد أن أعرف الآن

ضحك أدهم وقال : لم ينس عمله بمندوب المبيعات ويريد معرفة

النتائج أولا...اصبر يا سيادة المندوب.. ضحك الجميع وواصل ماجد قراءته :

" وبالرغم من السعادة الغامرة التي شملت كل ركن من أركان البيت إلا وقد لفت انتباهي أمرا غريبا وهو أنه لم يقم أحد من أعمامي ولا أخوالي بالسؤال عنّي ...ولا تهنئتي بنجاحي كيف لم انتبه لهذا الأمر منذ زمن بعيد !

وتساءلت لماذا لا تتم الزيارات بيننا ؟

ولا حتى نراهم في الأعياد ولا أي مناسبة ؟

وكانت تلك المحطة التالية وصدامي مع الأسرة

المحطة الثالثة
(حلم محكمة الأُسرة)

ذهبت إلي صلاة الجمعة وفي نيتي أن أجتمع بأبي وأمي وأواجههم بالحقيقة وبكل ما في قلبي وصدري فلن أسير بسفينة الحيرة مرة أخري في بحار ولا محيطات لا أعرف لها مرسَي أو شاطئ..

وقدراً وجدت خطيب المسجد « الشيخ سمير « يلقي بخطبه عن صلة الرحم ذكر آيات قرآنية وأحاديث أوجعتني في قلبي، وذكر إن قطع صلة الرحم من الكبائر، وأنه قد وردت أحاديث كثيرة فيها الأمر بصلة الرحم وبيان ثواب الواصل والنهي عن قطيعة الرحم وبيان عقاب القاطع عنها، أين نحن من كل هذا ؟؟

وقررت أن أنتظر بعد أن يفرغ المسجد من المصلين وتوجهت مباشرة إلي الإمام وخطيب المسجد الشيخ سمير ، عرفته بنفسي وبمشكلتي

فابتسم وقال : لابد أنها قطيعة بسبب المال ..إنها فتنة العصر يا ولدي،

لا حول ولا قوة إلا بالله، كانت فراسة الشيخ في محلها فأنا علي علم بهذه الخلافات وخصوصا أن أبي وأمي بينهما صلة قرابة من فروع بعيده نوعا ما وأن العائلة الكبرى واحدة وليست عائلتين

إنها مشكلة الميراث، وأن أحدهم كان لديه من الجشع أن أكل مال الآخر.. هذا كل ما أعلمه من خلال أبي وأمي وقد يكون غير ذلك.. ولكن بالتأكيد.. مشكلة إرث قديم أفقت من شرودي وغفلتي وسألت : وما العمل يا مولانا ؟

أجاب : صل رحمك يا ولدي لعل الخير يأتي علي يديك، اذهب إليهم وتحر عنهم، ولكن بدون علم والدك ووالدتك

نظرت إليه باندهاش.. وتعجبت لهذا الطلب، وشكرته علي وقته ونصيحته.. ودعا لي بالخير، ودعني بنظره كأنها تقول .. أعانك الله علي أن تتحمل !!!

كان صديقي أدهم معي وقتها ولم أصفح عما يدور في قلبي وعقلي.. فقد كنت قد أخذت قرارا ولا أحتاج للمشورة

****

لأن البركان ثار من جديد في نفسي، ذهبت إلي أبي وأمي، وواجهتهم بشكل مباشر.. أين العائلة؟

تطلعا إلي بعضهما البعض في حيرة ..وكأن عيونهما تسألان : لماذا تريد أن تنبش في الماضي يا صغيرنا ؟

وقطعت صمتهما بسؤال ألقيته: إنكم قاطعي الرحم ...لماذا يا مسلمين ؟؟

ارتعد أبي من كلماتي ومن نظراتي ومن سؤالي..ويظن أنني جُننت أو نوبة الهذيان التي أصابتني منذ عامين قد عادت إليّ، وبنبرة مليئة بالغضب قال: اذهب يا وليد الآن إن الموضوع أكبر من أن تتحمله.

ووجدت في عيون أمي لمعانا كانت دموعاً متحجرة ، وكأنها تسأل.. لماذا الآن ؟

ومع ذلك لم أراعي أي اهتمام.. بل وثرت أكثر وقلت: لماذا العلاقات باهتة بين أفراد عائلتنا ؟

أين أولاد أعمامي وأخوالي ؟

لماذا كبرنا ولم نجدهم بيننا ولم يجدونا بينهم ؟

كان الصمت هو سيد الموقف، وأصبحت الحجرة التي نتكلم فيها عبارة عن صحراء جرداء، أو ليلة باردة من ليالي الشتاء القارصة بلا مشاعر دافئة، واعتدل والدي في جلسته وخلع نظارته الطبية وشرد إلي بعيد.. وكان لزاماً عليّ أن أتركهم فقد ألقيت بحجر ثقيل في بركة ماء راكدة.. ورأيت أمواجا متتابعة ...من السكون

****

بعد هذه المواجهة الساخنة استلقيت علي فراشي متعبا من الفكر.. ونمت وحلمت حلماً عجيباً.. حلمت أنني دخلت المحكمة،

وأبي يجلس علي كرسي رئيس المحكمة..إنه القاضي وأمي ..مكان وكيل النيابة وفي صالة المحكمة أعمامي وأخوالي وزوجاتهم وأولادهم ، أشار القاضي (أبي) إلي الحرس أن يأتي بي خلف القضبان، نادي علي المتهم.. قالها القاضي للحاجب

الحاجب : المتهم الأول (وليد) المتهم بمطالبة الوالدين بصلة الرحم

أري وجهي الآن وهو في قمة الذهول والاندهاش، عيوني تكاد تختنق من الدموع المتحجرة، وحلقي وكأن به حشرجة الموت أنا متهم !! والقضية.. صلة الرحم !!! هكذا حدثت نفسي ..

القاضي : يا وليد أنت مُتهم بخرق قواعد أسرتنا الصغيرة وإنك تود لو تزور أعمامك وأخوالك ...هل هذا صحيح ؟

أنا (ومازلت غير مصدقا) : نعم ..حدث

الأب : وما هي الدوافع لهذه الجريمة ؟

استجمعت قواي لكي أدافع عن نفسي، وبدأت أفيق من ذهولي : أصلة الرحم .. جريمة؟! قطع الرحم من الكبائر، ونحن مسلمين ..فمن هو المجرم إذن ؟

همهمة في قاعة المحكمة ..جعلت القاضي يضرب بمطرقته ليستعيد الهدوء..

القاضي : لم تقل لي ما هي دوافعك ؟

أنا : دافعي هو صلة الرحم، فمن وصلها وصله الله، وما هي المشاكل والخلافات...إنها مشاكل في الميراث أليس كذلك ..؟

علت الهمهمة مرة أخرى ...وبطرقات خفيفة من المطرقة هدأ الحضور

استأنفت حديثي : وماذا بعد ؟ ما ذنب أن لا أرى عائلتي ولا أولادهم، ما ذنبنا في جشعكم أيها الكبار ؟..لماذا تريدون أن نرث هذا الميراث العفن والمتمثل في الكراهية والبُغض والحقد من بعضنا البعض؟ لماذا تريدون أن يكون هذا الجيل مشوهاً مثلكم ؟

الهدوء الذي كان في المحكمة جعلني أسمع تسارع دقات قلبي وتتابع أنفاسي، من شهيق وزفير تكلم القاضي بهدوء :

يا وليد، إنها مشاكل قديمة وإرث ورثناه كما قلت، ورضينا جميعا به، ولم نعرف كيف نتغير ولم نحاول أن نتغير، حتى نحيا في هدوء ونستطيع أن نقوم بتربيتكم في أمان نفسي، ففضلنا الصمت ورضينا به، إنها سنوات طويلة وبعيدة وماتت هذه المشاعر مشاعر صلة الرحم ..وتم الدفن.. والموتى لا يُبعثون في الدنيا نظرت إليه في يأس وقلت بحزم :

يوما سيثور هذا الجيل علي هذه السلبية وسيكره أفعالكم

وقف أحد الحضور ...وكان أكبرهم عمراً، وقد ارتدى روب المحاماة، وعلمت أنه خالي الأكبر ...وقف بكل ثقة وهدوء وقال : (سيادة القاضي،حضرات المستشارين ..إن ما يقوله ابننا وليد صحيح، وأننا أخطئنا في عدم مشاركة هذا الجيل في مشاكلنا ولا حياتنا وستحدث

وإن كانت بالفعل قد حدثت فجوة عميقة جدا بيننا وبينهم، فالجرح عميق وآثاره في عيون أولادنا

يا سيادة القاضي، إذا كنّا كما قلت سيادتكم أننا رضينا بهذا الوضع المقيت ..فإن علي الجيل الجديد أن يشارك بحزم في هذه المشاكل ، ليس للحل ...إنما للوعي..فالوعي هو سلاحهم الوحيد مستقبلاً، الوعي بأن لا يرثوا هذه الآثام والكبائر..علينا أن نعطي لهم خبراتنا في الحياة بكل حب وود ورحمة ..وإلا فسيكون هذا الجيل نسخ مكررة ومشوهة ..بل مسخ ... والمسخ لا يتكاثر. سينتهي.. شكرا سيدي القاضي)

انفجرت القاعة بالتصفيق الحاد ..وبعد أن استعاد القاضي وقار المحكمة.. وقال : حكمت المحكمة حضوريا ببراءة وليد من التهمة التي نُسبت إليه وأن عليه هو وجيله أن يشاركوا في الحياة الأسرية ...رُفعت الجلسة

إستقيظت في قمة النشاط والحيوية، سعيدا بهذه البشارة التي رأيتها، وبالفعل فكرت في زيارة أحد أعمامي وهو أخيه (إبراهيم المنسي) ..بدون علم أبواي وكانت بمثابة قفزة نفسية رائعة»

****

سأل سامح : وهل التحق وليد بكلية الطب أم الأسنان ؟

ماجد : التحق بكلية الطب ثم حدثت حادثة له وتركها والتحق بكلية طب الأسنان وهذا ما سطره في مذكراته

وأثناء هذا الحوار تلقي أدهم مكالمة علي هاتفة المحمول وبعد أن فرغ منها جلس بينهم

وقال : إن هذا الاتصال من صديق مشترك بيني وبين وليد وكان جارا لنا قبل أن يغادر إلي بيتهم الجديد مثلما فعل وليد ...وسألت عن وليد وإن كان يعرف عنه شيئا ...فأخبرني أنه آخر لقاء به كان عندما أراد أن يلتحق بفرقة المسرح بمركز الشباب والرياضة ..ولم يكمل ...تنهد سامي تنهيده عميقة لتثبت ما يُفكر فيه ..في حين كان أدهم وسامح في قمة الاندهاش.. وماجد بالقطع كان يعرف بهذا الأمر..

لم يهدأ عقل سامي المنشغل بلغز وليد ...ولم يرتاح لانتقال وليد من كلية الطب إلي طب الأسنان بسبب حادث !!، وتذكر أنه التحق بكلية الطب جامعه عين شمس وأن وليد التحق بكلية الطب جامعة حلوان وهذا أدي إلي فِراق بينهما حاول سامي أن يتذكر صديقا مشتركا بينهما مثلما حدث مع أدهم.. ولم يفلح

وغرق سامي في بحر التفكير العميق حتى تذكر دفتر الهاتف القديم الذي يحتفظ به ويحتوي علي أسماء أصدقاءه القدامى ..ولحسن حظه عثر علي هذا الدفتر المهمل وسريعا حاول البحث عن صديق طبيب خرّيج كلية الطب جامعة حلوان.. ومر خمسة عشر دقيقة بدون أمل حتى وصل إلي حرف الواو.. وجدي العقباوي - طب حلوان

أسعفته الذاكرة الآن ..فقد تقابلا قديما عند مقهى المحطة بعد شهور من التحاقهم بالكلية وتعرفوا علي بعضهم البعض سريعا وأخذ رقم هاتفه الأرضي علي أمل أن يتقابلا فيما بعد ولكن هذا لم يحدث.. ولم تستمر الصداقة، وبالفعل تم الاتصال وقام بالرد عليه والده وبعد التعارف السريع أعطي له رقم جواله.. واتصل به ليتقابلا مثلما حدث قديما ....

(٥)

كان سامي يريد أن يعرف بعض التفاصيل عن وليد عندما كانا في الكلية لعله يعرف ماذا كانت طبيعته النفسية آنذاك ..وتقابلوا الجميع كالعادة والجديد عليهم هو حضور د. وجدي الذي تأسف لعدم معرفته لوفاة وليد وانه لم يقابله بعد أن ترك الكلية .. قال ماجد : لقد ذكر هذه الحادثة في مذكراته وعليك أن تستمع معنا وإذا أردت أن تُعقب بشئ سنستمع إليك

وافق د. وجدي وأنصت إليه

المحطة الرابعة

(الصدمة)

التحقت بكلية الطب جامعه حلوان وفي أول يوم لي بالجامعة وجدت أمواجاً بشرية هائلة من الطلبة عند شاطئ الكلية..تعجبت من كل هذه الأعداد، وعلمت فيما بعد أن هذه الدفعة ما هي إلا مولود جديد من رحم الثانوية العامة الجديدة وبقايا النظام القديم، فكانت الأعداد كبيرة لم تشهدها الجامعة من قبل .

بدأت أتأقلم مع الوضع الجامعي الجديد وتمنيت لو كنت مع سامي وماجد في نفس الجامعة ولكن انه القدر الذي فرّقنا عن بعضنا البعض.. في تلك الفترة تعرفت علي وجدي العقباوي ..شاب جميل وملتزم وجاري في المحاضرات النظرية والعملية في شتاء هذا العام قد مرت ثلاثة أشهر من بداية الدراسة وحدث حادثة عجيبة.

عدت إلي المنزل بعد يوم دراسي ثقيل وأثناء صعودي علي السلم، سمعت صراخ أحد الجيران في الشقة التي تجاورنا وهرولت مسرعاً

ووجدت الأم تصرخ فيّ طالباً الصعود سريعاً وأنهم يبحثون عنّي.. لم أفهم ما الحكاية حتى وصلت إلي أحد الحجرات ووجدت ابنها (ممدوح) مُمدداً علي السرير وهو في حالة إغماء حاولت إسعافه بالإسعافات الأولية التي أعرفها فقد قمت بتدليك منطقة القلب والتنفس في الفم .. ولكن بلا جدوى، طلبت الإسعاف سريعاً فكنا في حالة من الاضطراب والذهول..

وفي خلال هذه الفترة سألت عمّا حدث له ..قصوا قصته باختصار أنه شرب خمراً وأشعل دخاناً كثيراً به نوع ما من المخدرات أتي الإسعاف بعد عشرون دقيقه فقط.. وبعد قياس الضغط والسكر وبعد الكشف عليه قليلا...

بدت ملامح الأسى علي وجوهم..وأخبرونا بالوفاة

****

انهار الجميع من الصدمة ولم نخبر رجال الإسعاف بالحقيقة وقلنا أننا وجدناه هكذا عندما أردنا أن نوقظه لتناول الغداء ..وصدقونا وخرجوا

كان الانهيار العصبي على أشده ومرت الساعات ثقيلة علي النفس فكلنا في ذهول مما حدث ..فمنذ ساعات قليلة فقط كان ممدوح يلهو ويضحك ...منذ ساعات كان في حالة من المعصية ..منذ ساعات... كان وكان .....والآن بين يدي ربه ... يا لها من دنيا !!

ولأول مرة أفكر في الموت فقد تجسد أمامي ..ودخلت على ممدوح

المتوفى ..وتحسسته بيدي ..إنه بارد ومتجمد كالثلج ..تأملت في وجهه ..في جسده...وهو بلا روح وتذكرت مواقفه وضحكه طوال عمره ...وأنه يصغرني بسنوات قليلة ولم يكن صديقنا ولكن كان بيننا معرفة جيده ... كان وقتاً صعباً عليّ جداً ..فهذه أول مرة أتواجد في مثل هذا الموقف .. وقمت بوضع بطانية النوم علي جسده وقبل أن أغطي رأسه ..ودعته بقبلة أخيرة علي جبينه لم أعرف وقتها كيف أتيت بهذه القوة، وترحمت عليه ودعوت له بالمغفرة ..وجلست مكاني وبكيت ..بكيت بعنف حتى سمعني من بالخارج وأخرجوني وأنا في حالة إغماء

أفقت من حالة الإغماء علي صراخ وعويل عماته وخالاته ، وبعد عدة ساعات أخرى قمنا بصلاة الجنازة عليه بعد صلاة العشاء ...وتم دفنه في هذه الليلة

****

عدت إلي منزلي وسط ذهول أبي وأمي وإخوتي الفتيات علي جارنا الشاب الذي مات بسبب سوء السلوك والتصرف ..فالموقف كله في اضطراب..ولأن اليوم كان طويلاً ..نمت مجهداً استيقظت ثان يوم والحيرة تملكتني من جديد، الموت ..

ماهو الموت ؟

وكيف يحدث ؟

وكيف لم أستطع إسعاف جاري ؟

ماهو الطب ؟

وكيف لم أحسن التصرف ؟
ولماذا مات ؟
لماذا لم يُعطى له فرصة للتوبة ؟

لماذا ...لماذا..كيف..؟؟

مئات الأسئلة تجمعت لكي ينفجر رأسي، ومكثت أياماً في منزلي.. وأهملت الكلية ..فكانت صدمة الأهل عندما أخبرتهم أنني لن أذهب إلي كلية الطب مرة أخرى ولن أذهب إلى حلون.. وبكل عنف أغلق باب عقلي عن التفكير أدخلت نفسي في حالة من الاكتئاب الأسود وأغلقت علي نفسي كل شئ ، عقلي وقلبي وروحي، فالحيرة بلغت ذروتها .. لماذا الطب لم يُسعف صديقي قبل الموت ؟

تذكرت أنه كان به شئ من الروح ..بقايا إنسان ينبض ..أكاد أُجن وعقلي أرهق من التفكير، حالتي النفسية في انحدار ظلمات بعضها فوق بعض...ويدي أمسكت القلم وسطرت هذه العبارة (كلنا يزور الأموات ولكننا لا ندري من سيزورنا)

ومرت الشهور ثقيلة جدا ..وأبي يزداد غما بعد غم، وبدون أن أشعر، أخذني إلي أحد الأطباء تخصص مخ وأعصاب ، وكتب لي وصفة طبية بها مهدئات أعيش عليها لمدة من الزمن حتى زادت الجرعة وأضيف إليها منوم ...بلا فائدة وجاءت الأجازة الصيفية ولم أحضر الاختبارات

كانت أحلك الفترات ظلاماً، فقد ارتديت الاكتئاب الأسود

وأحاط المجهول بي

وحاول صديق الكلية وجدي إخراجي من حالتي فهو الوحيد الذي سأل عليّ في ذلك التوقيت

****

أغلق ماجد المذكرات وتوجه الي د. وجدي وسأله : هل حقا قمت بزيارته ؟

وجدي : نعم...كانت حالته صعبة جدا ، وليد كان منهارا تماما وأخبرته أنه من الممكن أن تأجل هذا العام وتبدأ من جديد ..لكن بدون فائدة فقد استشري المرض النفسي و تملك منه حتى ازداد وزنه بشكل ملحوظ

ماجد بأسي : نعم لقد ذكر ذلك

سامي : د. وجدي ..وأنت في زياراتك له ألم يخبرك بشئ خاص ؟

وجدي : كان خائفاً من والده كثيراً وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيسي ما بين تركه لكلية الطب لأنه حلم والده وبين التحاقه بأي كلية أخري ...فكان يريد أن يهرب من أي فرع من فروع الطب..كان يريد كلية التجارة ولكن لم يحدث

سامي : وليد لم يهرب من كلية الطب لهذا السبب..اقصد الحادث الذي تعرض له ..

كانت علامات الاستفهام تحوم حول الجميع
ماجد : لنكمل ثم نستمع إلي سامي

****

حل الصيف وقد ازداد وزني بشكل ملحوظ، وتخليت عن أصدقائي وحياتي ..وكلما مللت من الجلوس بالمنزل ذهبت إلي مقهى من المقاهي البعيدة عن منزلنا.. وهناك تعرفت علي شاب في معهد فني تجاري .. كان لطيفا، يتيم الأب.. وبدأت أحكي له عن قصتي وكيف وصلت إلي هنا.. وهو أيضا قال لي جملة تعلمها من حياته (إن الوحدة خير من جليس السوء)

رضيت بهذا الفكر الغير سليم رضيت به حتى لا أفكر كثيراً فيه فالرضا نوع من الاستسلام وكنت في أمسُّ الحاجة إليه ومع الوقت أصبح وزني مثل وزن (الفيل) وازدادت حالتي سوءاً خوفا من أبي ...

في حجرتي فرشت كل الكتب مكان السرير ووضعت المرتبة عليهم وأصبح هذا مكان نومي، فكنت أسحب كتاباً من تحت المرتبة وبعد الانتهاء منه أضعه مكانه وأستعير غيره، ومع ذلك لم أكتسب من القراءة شيئاً فكنت في حالة لا وعي، إنما كنت أقرا كنوع من قتل الوقت فحياتي أصبحت غريبة، حمادة علمني الدخان ولأول مرة أدخن السجائر، تخليت عن الحلال والحرام لم أعد أذهب إلي المسجد باستثناء صلاة الجمعة، تحولت حياتي إلي انهيار تام وفكرت في الانتحار .

في هذه الأثناء بحث والدي عن شيخ لكي يُخرجني من حالتي النفسية التي حولت حياتي إلي انهيار، وقدراً كان هو نفس الشيخ الذي سألته منذ عام عن صلة الرحم(الشيخ سمير) عرفته وهو مقبلاً عليّ في حجرتي التي أصبحت في حالة اضطراب هي الأخرى وكأنها تعكس شخصيتي الجديدة، لم يعرفني هذا الشيخ في البداية ولكني ذكرته.. ورأيت علامات الأسى والحزن بعد أن سردت له ما حدث، وضع يده علي رأسي وبدأ يدعو لي وأنا أبكي وما بين النحيب والبكاء قرأ الشيخ هذه الآية

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

انبسطت أساريري وأشرق قلبي في فرحة غابت عنّي منذ شهور، وقمت وعانقت الشيخ عناقاً طويلاً وبكينا وبكى كل من بالحجرة، وقامت أمي وعانقتني وبكت.. ولأول مرة أشعر بدفء الأم من هذا العناق .. وبعد هذا المشهد الدرامي.. جلسنا وحددنا ماذا سنفعل ..؟

وقام الشيخ الجليل (الشيخ سمير) بوضع فكرة كانت هي بوابة الخروج من أزمتي وهي أن أترك كلية الطب وأن أختار كلية أخرى وأفهم والدي أن ما حدث لي هي انتكاسه نفسية من وفاة زميلي وأن حالتي ستزداد بالراحة إذا عاد مرة أخرى لهذه الكلية وخصوصاً بعد ما إن استقر في عقلي الباطن أن كلية الطب لا تعيد الموتى

سعدت جداً بهذا الاقتراح وحتى لا أكون سببا في إحداث ألم لأبي

وأمي من عدم رغبتي في أن لا أكون طبيباء، ومن تحقيق حلمهما ، قلت على الفور أريد أن ألتحق بكلية طب الأسنان فهي أيضا فرع من فروع كليات الطب ولها مستقبل فيما بعد

وبالفعل سحبت أوراقي من كلية الطب لتستقر في كلية طب الأسنان في نفس الجامعة تحسنت حالتي سريعاً ولم يخف وزني بعد ..ولكن بالإصرار علي رياضة المشي والجري بدأ الحال يتغير، وامتنعت عن التدخين ولم أعد ألتقي بصديق المقهى (حمادة)...ولكنني سألت عليه وعلمت أنه سافر إلي احدي دول الخليج

مرت الشهور وبدأت أستعيد طبيعتي النفسية والجسدية ..وكانت نتيجة الفصل الدراسي الأول هو جيد جداً مع مرتبة الشرف، مما أعطاني قوة دفع بأنني علي الطريق السليم وتأملت حالي وتأكدت أن العقل السليم في النفس السليمة وليس في الجسم السليم .

وبعد عام كنت أكثر صحة وعافية بفضل الله عز وجل، وبسبب التجربة القاسية التي مررت بها كان لابد أن أخرج كل ما في طاقتي من هوايات وذهبت إلي مركز الشباب والرياضة ..

كان من المتوقع أن ألتحق بفريق كرة القدم...وهذا لم يحدث .. فاجأت الجميع بالتحاقي بفرقه الفنون المسرحية وخرجت من عالم الظلمات إلي عالم الإبهار والأضواء والنجوم ...

عاد أدهم بعد أن انتهينا وأخبرهم بمقابلته لعمرو صديق وليد، وقام بإلقاء السلام علي د. وجدي وعرف منهم المحطة التي وقفوا عندها

قال سامي : (هذا ما أردت أن أعرفه أن وليد لم يهرب من كلية الطب بسبب الحادث ولكن بسبب أن هذا حلم والده ...لقد أحس وليد أن والده يتحكم فيه ووجد هذا الحادث فرصه ليثبت ذاته فقرر ترك الكلية إلي كلية أخري يختارها هو وليس اختيار والده علي غرار لن أعيش في أحلام أبي)

اقتنع الجميع بهذا التحليل المقبول في رحلة وليد وتفرقوا واتفقوا علي أن يرتاحوا قليلا حتي يهدءوا من التفكير الذي أتعبهم بشأن وليد في هذه اللحظة كان عمرو جالساً في شرفته قبل تناول وجبة السحور.. يتذكر تفاصيل عن وليد لم يعرفها أحد ولا حتى أصدقاءه..

تذكره عندما تقابلا لأول مره في مسرح مركز الشباب والرياضة وكان مجهولا وتساءلت كيف سيصبح ممثلا إذا لم يتجرأ ويفصح عن انفعالاته.؟

بمرور الوقت أصبحوا أصدقاء وكان يزوره في منزله وحكي له عن طموحاته وأحلامه في التمثيل ولكنه كان سلبياً لم يتخط حدود أحلامه ..كان هناك شئ يمنعه من الاقتحام.. ويوما علمت أنه يقوم بتدريبات لمسرحية جديدة وذهبت إلي رؤيته

(٦)

التقي الأصدقاء الأربعة حول مذكرات وليد وكأنها وجبة رئيسيه ما بين وجبتي الإفطار والسحور وقبل أن يذهب بهم ماجد إلي محطة جديدة من محطات وليد ...قال أدهم :

قابلت أمس صديقي عمرو وكما قلت سابقا أنه صديق مشترك بيني وبين وليد وأيضا جار قديم ..وكان يهوي الإخراج المسرحي قبل أن يتركه ويعمل محاسبا في احدي الشركات وقابل وليد في مركز الشباب والرياضة وأصبحوا أصدقاء وأخبرني أن وليد لم يكمل في فن التمثيل وانسحب لأن هناك شئ منعه من الاقتحام

وهنا ضرب سامي بكل قوته علي الطاولة التي أمامهم كادت أن توقع المشروبات من عليها.. وقال : وجدتها.. وجدتها.. ارتبك ادهم وتوتر سامح ، وسأله ماجد : ماذا وجدت يا دكتور أرشميدس ؟
قال سامي وعلي وجهه بعض السعادة :

(وليد لم يكن محتارا في الدين إنما كان يريد أن يلفت انتباه

والده بأي حال من الأحوال عن طريق التمثيل وهذا ما كتبه في مذكراته (لقد تقمصت شخصية الإرهابي) فقد كانت لديه موهبة التمثيل ...فقد قال أن هناك فجوة كبيرة بينهما وعندما وصل به الحال إلي مدير المدرسة هدأ لأنه تكلم معه بشكل أبوي ... إن عُقدة وليد كانت في (مشاعر الأبوة) ..ومع ذلك لم ينتمي إلي جماعه خارجية وأراد عقلة الباطن أن ينتمي إلي ما يشبه والده لذلك لجأ إلي صلة الرحم...وبسبب حبه الجارف لوالده لم ينضم لفريق كرة القدم التي كانت مع (الإخوان المسلمين) رغم ولعه بالكره وأنه كان ضمن فريق المدرسة في المرحلة الإعدادية وذلك بسبب تحذير أدهم في أنهم جماعه سياسية وعندما أخبره بالسجون..خاف علي والده وأن يكون سببا في مشاكل قد تسبب في فجوة أكبر

مع الأسف والد وليد قتل في ابنه كل أحلامه وهدم شخصيته بدون قصد .. والده أراد احتواءه تماما وكان يريد أن يحقق حلمه هو ، وكما قلنا سابقا أنه حاول إرضاء والده فالتحق بكلية طب الأسنان كفرع من فروع الطب وفي نفس الوقت يثبت شخصيته ...

كم من الآباء التي قتلت أحلام أولادهم لتحقيق عُقدة النقص التي أصابتهم ويريدون تحقيق ما حلموا به في أولادهم حتى وإن كانت غير مناسبة لهم (إنها الأنانية التي أفرزت جيلاً مشوهاً بلا هوية ولا ملامح)

دُهش الجميع من تحليل سامي حول أزمة وليد فقد أضاء لهم الكثير من ملامح وشخصية وليد

فقال أدهم : تحليل في منتهي المنطق والعقل والاتزان

سامح : والآن بعد أن كنّا نبحث عن وليد سنبحث عن والده أيضا

سامي : سنبحث عن الاثنين فكلاهما مكملان لبعض

أكمل يا ماجد

******

المحطة الخامسة

(النجم الباهت)

في صغري كنت أقف أمام المرآة وأقوم بتقليد بعض الفنانين فكنت أنا الجمهور الوحيد لنفسي، ولم أخبر أي صديق لي بهذه الموهبة ...وكان ذلك في المرحلة الإعدادية فقد كنت مميزاً بالفعل بهذه الموهبة ولكن لأنه لايوجد فرقة مسرحية أو تمثيلية بالمدرسة، وقفت موهبتي عند هذا الحد ..وقفت أمام المرآة

ولكنني وقتها انضممت للفريق الرسمي للمدرسة الخاص بكرة القدم وهذا لم يمنع من أن أكون مجتهداً في تحصيل دروسي بل شجعني كثيراً علي التميز وفي السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية كان ترتيبي الثالث علي مستوى المدرسة

وما نراه حالياً من انحطاط أخلاقي ونفسي لطلبة المراحل الإعدادية والثانوية بسبب فقر المدارس في استغلال مواهبهم ..لذلك يلجئون لتفريغ طاقاتهم في المشاغبة والإباحية !

ولعل عثوري علي الكتاب ذو الغلاف الأحمر وقراءته كان السد العالي للموهبة التي كانت بداخلي، فقد تنبهت أن التمثيل كذب وحرام ..وبعدما تخطيت هذه المرحلة وأصبحت جامعياً

سألت لماذا الفن حرام ..؟

وقررت خوض التجربة لأجد الإجابة التي تريح عقلي ونفسي انضممت لمركز الشباب والرياضة والتحقت بالفرقة المسرحية وتعرفت على أعضائها وعلمت أنهم من كليات مختلفة كالطب والهندسة والتربية والأزهر ..خليطا عجيبا من الناس لا يجمعهم إلا موهبة مشتركة هي موهبة التمثيل

صادف هذا الصيف وجود مهرجانا مسرحيا يُقام كل عام يضم فرق مسرحية من عدة محافظات مختلفة من أنحاء الجمهورية، وكل فرقة تقدم عرضاً مسرحياً أو اثنين، وبعد كل عرض مسرحي يجتمع طاقم الممثلين مع النقاد ويقومون بعمل ندوة خاصة بالعرض وفي نهاية الموسم تُوزع جوائز أفضل ممثل وممثلة وعرض مسرحي ....الخ بحضور أحد الفنانين الكبار المشهورين

****

أثناء هذه العروض نشط خيالي بشكل) مفاجئ) فقد أرى نفسي مكان كل بطل مسرحي ..بل وأتقمص دوره وأحاول تقليده أمام المرآة، وصل بي الحال أنني صدقت نفسي أنني) نجماً لامعاً) ينقصه الاكتشاف فقط !

واستمر الأمر معي حتى قمت بكل الأدوار التراجيدية والكوميدية بل تطور الأمر الخيالي إلي أنني وقفت أمثل أمام الكاميرات وأقوم بعمل أفلام سينمائية

****

بعد انتهاء المهرجان المسرحي توطدت العلاقة مع الأصدقاء الجدد وخصوصاً مع (عمرو) فقد كان طالبا بكلية التجارة ولكنه عبقريا في الإخراج المسرحي وكثيرا ما زرته بمنزله واحكي عن طموحاتي التمثيلية ومستقبلي الفني

أما (كريم) هذا الشاب كان طالبا بكلية العلوم ومحب للفن عموما وللإخراج خصوصا، اتفقنا علي عرض مسرحية وأكون أنا البطل ..

كانت مسرحية مترجمة واسمها (الزنزانة) تحكي عن اثنين من المساجين في زنزانة ويدور بينهما حوارا طويلا

بالقطع سعدت جداً بهذه الدعوة وخصوصاً أن البطل الآخر صديقي وأعرفه جيداً...واتفقنا علي المواعيد المناسبة والتي كانت يوم الخميس من كل أسبوع لأننا كنا بدأنا في الدراسة وكلاً منا مشغول بكليته

وبعد شهر من التدريب الأسبوعي اكتشفت نفسي علي حقيقتها كان اكتشاف أشبه بمطرقة قوية دقت علي رأسي بمنتهى العنف والحقيقة الغائبة عنّي وهي أنني لستُ موهوباً ولكنني كنت موهوماً

فـأنا لم أتقمـص الشـخصية بشـكل جيـد مما جعلـني عصـبي المـزاج وكثـير الشـجار مـع المخـرج وزميـلي الآخـر وقـت بتمزيـق نسـختي مـن المسرحيـة وودعـت خشـبة المـسرح بشـكل نهـائي

جلسـت ليلتهـا بمفـردي في حجـرتي وحاولـت أن أتفـادى (النكسـة النفسـية) التي قـد تعـود إلي بعـد أن تعافيـت منهـا، ومما سـاعد عـلي ذلـك هـو تذكـري أنـني طالبـا متفوقـا في كليـة طـب الأسـنان وأنـني لا يجـب أن أصيـب أبي وأمي بالإحبـاط مـرة أخـرى وأن عـليّ مواصلـة تفـوقي وحمـدت الله أنـني لم أعـش في هـذا الـوهم كثـيراً وانقطعـت تمامـا عـن مركـز الشـباب والرياضـة وقاطعـت الفرقـة المسرحيـة وكل الأصدقـاء الفنانـين وأقنعـت نفـسي بأن الفـن ليـس حرامـا في ذاتـه إنمـا في مـا يوجـد شـبهات في أسـلوبه مثـل الاختـلاط بـين الشـباب والفتيـات وعـدم الصـلاة بحجـة التدريبـات غـير أن هنـاك الكثـير مـن الألفـاظ والحـركات اللاشـعورية تحـدث بـين الشـباب غـير مسـتحبة وبهـذا المفهـوم ....خرجـت مـن بوابـة الـوهم لتلمـس قـدمي أرض الواقـع ...ولعلهـا المـرة الأولى الـتي تحـدث لي

علمـت فـيما بعـد أن عمـرو كان في طريقـه لاختيـاري بطـلا لإحـدى مسرحياتـه الـتي سـوف يقـوم بإخراجهـا ولكنـني خذلتـه وابتعـدت عنـه ولم التـق بـه إلا قـدرا وبعـد أن عـرف أنـني انتويـت عـلي التخـلي عـن فكـرة التمثيـل نهائيـا قـال عمـرو لي :

وليـد سـتظل حـائراً دائمـاً ولـن تتعـلم الغـوص في أي بحـر ليـس لأنـك لا تعـرف العـوم ...ولكـن لأنـك تخـاف مـن التجربـة سـتظل هكـذا عـلي الشـاطئ ...تتمتـع بالأمـان

مر العام الدراسي بسلام بل ومتفوقا في دراستي مما أعطي لي الكثير من الثقة ..وفي الصيف فكرت في زيارة عمي

(أسامه) فأنا علي علم أنه تاجر سيارات وأنه ليس مثل والدي علي الإطلاق فهو شخصية متدينة ورجل شهم ومحب للحياة ويشعر دائما بالرضا ، هذا ما سمعته من والدتي عندما سألتها عن أعمامي.. وأخبرتني أن العم الثالث

(أمجد) أخبرتني أنه مسافراً منذ زمن بعيد ...فقد هاجر إلي دولة لا نعلمها ولا نعلم عنهم شئ

وقررت أن أزورهم في بيتهم الخاص وعرفت العنوان إذ به أجد أنها عمارة كاملة من خمسة أدوار ..وصعدت إلي الدور الأول علوي ..وعلي جرس الباب وضعت إصبعي ..لم أرفعه إلا عندما فتح لي ملاك من السماء اعتقدت أنه هبط لي خصيصا ..انعقد لساني ولم أتكلم خشية أن تصيب تلك الفراشة الرقيقة بأي خدش من كلامي الغليظ، لقد أبحرت في عينيها العسليتين ، وجه كالبدر ، لديها جاذبية أوقعتني في حبها ، قلبي يرتجف ويدق خشيت أن تسمعها فيفضحني

ابتسمت وقال : نعم ؟ من حضرتك ؟

من فرط خوفي لم أنطق ..حتى أعادت علي مسامعي نفس السؤال ...

تلعثمت وارتبكت وقلت : أنا ابن عمي ..

ضحكت ضحكة عالية ..تنبهت من خطأي وقلت :

أنا وليد إبراهيم المنسي ...

عانقتني بابتسامة عذبة وقالت : أهلا بابن عمي أنت من عائلة المنسي؟

قلت بعفوية : أنا منسي في عالم الفراغ

لم يقطع حديثنا السريع إلا ظهور والدتها ..وكأنها أختها الكبرى .. وبعد التعارف أدخلتني في حجرة الصالون

اعتذرت عن وجودي المفاجئ بينهم وبدون ميعاد سابق ولكن زوجة عمي طمأنتني بأن البيت بيتي وأن أزورهم في أي وقت ..وظهر عمي

النسخة الطيبة من والدي ...المليئة بالحب والعطف والحنان ..شعرت بكل هذا بعد عناق طويل بيني وبينه ...نقل الدفء إلي قلبي ومشاعري ...وأحسست أنني رُبيت في هذا البيت ...

فقد كنت في اشتياق لجو العائلة

وتعرفت علي الملاك (مريم) وإنها أنهت دراسة الثانوية العامة وستلحق بكلية الصيدلة العام القادم جامعة عين شمس ، وأخبرتهم أنني طالب بكلية طب الأسنان وسألتحق بالفرقة الثانية العام المقبل وأخبرتهم بتقديري ...

وبعد ساعتين لم أشعر بهما غادرت البيت ...وتركت قلبي هناك ....

*****

سامي : اعتقد أنه من الواضح أنه أحب مريم وأنه وجد عمه هي النسخة الأصلية التي يريدها لوالده ...

سامح : نعم...من الواضح أن الأمر سيتعقد

ماجد : للأسف ...لكن لا تقفز فوق الأحداث

ضحك الجميع وغادروا المقهى ...

****

من بين هذه الأحداث التي بين أيدينا ...كان هناك من يتذكر وليد أيضا.. إنها مريم.. عادت بالذاكرة لسنوات بعيدة وقبل أن تفتح الباب لوليد .

إنها الآن في حجرتها كانت قد قرأت بعض أبيات شعرية من احدي المجلات بعنوان (من يفتح الباب)

سأنتظر حتى يمل الصبر مني

سأنتظر حتى يسأل القدر عني

هل وصالك لي محال

أم هو حلم أو خيال

أم قصة عن غرام الأحباب

ومتى فتح لي هذا الباب

وصالك حنان وجنان

وهجرانك براكين ونيران

ورقتي بدأت تدمع

وقلمي لي يسمع

وقلب بدأ يسأل

هل من القريب الملتقي

أم من البعيد المنتهي

ولكني سأنتظر

نقلت هذه الخاطرة في مدونتها الخاصة ..وسمعت جرس الباب فكان ابن عمها وليد ، كانت أول مرة تسمع به وأول مرة تراه ....

وبعد أن رأيته...احتل قلبها مباشرة بدون استئذان

(٧)

مازالت مريم تتذكر وليد بعد أول لقاء ، وبعد أن غادر البيت عادت إلي مدونتها من جديد وسطرت ما طرق علي مشاعرها ....

(لم أعرف ما الذي انتابني ...من هذا الذي سلمت له مفاتيح إحساسي ...وحكم عليّ بالسجن مدي الحياة ....داخل أسوار فؤاده

من أنت يا لص القلوب ؟ لقد سرقت كل خزائن مشاعري ..لقد سرقت قلبي ..وشرعت في قتل أعصابي ...

أنت لص ؟

لقد حولتك إلي المحكمة لتنال حكم يرضيني

ماذا؟ برئ !!

لقد برأتك ساحة المحكمة لأن محامياً بارعاً ..قد تطوع للدفاع عنك.. هذا المحامي هو قلبي...والقاضي كان القدر

فهنيئا لك ولي.. لقد رغبت في امتلاكك مع سبق الإصرار) تعددت زيارات وليد لنا كثيرا ..وتعودنا عليه وأبي وأمي وأخوتي أحبوه.. كان لطيفا وأحيانا أحس باضطرابه ..وأخبرني بان وجد لي صيدلية لكي أتدرب فيها.. ووافق أبي.. صيدلية الشعب وأوصي د. محمد شحاته عليّ

****

أصبح اللقاء يوميا علي مقهى المحطة...فقد أحس سامي أن وليد سيصبح في مأزق كبير بعد رؤيته لمريم ....ولكنه ليس كسامح في قفزه فوق الأحداث.. قال سامح : ما هي المحطة القادمة يا ماجد

ماجد : محطة فلسفيه ....

سامي : كيف ؟

ماجد : لنقرأ

المحطة السادسة

(في صالون د. محمد شحاته الأدبي)

بعد مرور عام من الزيارات المتعددة لعمي ومريم التي كنت مشغولاً جدا بها ...وأردت أن تري الحياة العملية وهي أن تقوم بالتدريب في صيدلية كبرى في الأجازة الصيفية وكنت قد قابلت الشيخ سمير قدرا واتفقنا علي أنها تتدرب بصيدلية الشعب لصاحبها د. محمد شحاته ...وذهبنا سويا أنا والشيخ سمير وتعرفنا علي د. محمد ....وبعد فترة بسيطة أصبحنا أصدقاء رغم فارق العمر ....وتعددت الزيارات وبكل ثقة أقول لو أن هناك صالونات أدبية لكان د.محمد شحاته له صالوناً أدبياً بجدارة فهو من القلائل الذين تجدهم علي درجه عالية من الوعي والثقافة والفهم ، ومع زيادة الاقتراب منه قصصت عليه حياتي القصيرة وكيف وصلت إلي هنا ..وكيف تركت كلية الطب وانتقلت إلي كلية طب أسنان وكان التفكير وقتها انفعالي بسبب وفاة زميل لنا وأن الطب لا يُسعف الأموات

كان يستمع إليّ باهتام وشغف ...ثم قال بمناسبة هذا الموقف :لقد اختصرت الطريق جدا، وبالرغم من أن ذاك الموقف كان ممكن يعطيك دفعه إيجابية وأن تهتم أكثر بدراستك لكلية الطب مع بعض الوعي من الأهل والشيخ سمير ..وتصبح طبيباً متميزاً ولكن لأن الله عز وجل إذا أراد أمراً يَسر له أسبابه

ذكرتني بصديق طبيب تخصص جراحه عامة ومتزوج من صيدلانيه زميلة وكان يقوم بعمل العمليات الجراحية بعيادته ويوما ما مات المريض تحت يديه ولولا أن أهل المريض من المؤمنين بقضاء الله لكان طبيبنا في السجن بسبب خطأ ارتكبه أثناء العملية الجراحية ، فقد حقن المريض بحقنة ما أفقدت الجهاز التنفسي حركته ، ومن بعدها ترك الطب وباع العيادة وعمل مع زوجته بالصيدلية واكتفي بالبيع والشراء

يا وليد إن الحياة أشبة بقطار يسير بسرعة شديدة ويقف عند محطات محددة وإما أن تبقي بالقطار في حالة انتظار المحطة التي تريدها أو تنزل وهو يسير بسرعته الجنونية

وأنت نزلت مبكرا والقطار يسير بك ، لعله خير

****

وفي احدي الزيارات تذكرت الموت .. سألته : لماذا لا نفكر في الموت ؟ وقت الحادث كانت الصدمة قوية بالنسبة لي وكأنه شئ جديد عليّ أو مفاجأة غير محسوبة

أجاب مبتسماً: لأن الذي مات صغيراً في العمر وليس كبيراً بالدرجة الكافية ، وأن من في عُمرك من الصعب أن يفكر في الموت وأنت في مقتبل حياتك ولازلت زهرة تتفتح للدنيا ، فكيف تفكر في الذبول !!

إن للموت فلسفه عميقة ، وهذا الفِهم لفلسفة الموت لا يأتي بمجرد موت عزيز لدينا ..فإننا نري أناسا كثيرة يفقدون أعز ما لديهم ومع ذلك ..لم يأخذوا من الموت عِبرة ولا عِظة ! لأن الدنيا وزينتها وفتنتها أقوي من الموت في نظرهم ، إن الموت انتقال الروح من دار الدنيا إلي البرزخ ثم إلي دار الآخرة، كل ما يحدث هو انتقال للروح أما الجسد لأن خرج منه الروح فيموت ويعود إلي مكانه الأصلي وهو التراب، وسبحان الله تتحول الأسماء وتتبدل بمجرد أن تخرج منها الروح

مثلا الميت يصبح أسمه جثة والبيت عندما يُهدم يصبح أطلالاً .. ولو فهمنا معني (إهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) لارتحنا كثيرا وأن الطريق المستقيم في الدنيا هو نفس الطريق المستقيم للجنة، لذلك كل ما يحدث هو انتقال للروح التي كانت تسير في خط مستقيم إلي الجنة

****

كان الحديث مشوقاً فاستجمعت شجاعتي ذات يوم وقلت : ولكننا ليس كلنا نسير في الطريق المستقيم

أجاب :أصبت ..إن الإنسان له نفس واحده وإمّا أن تكون نفساً لوّامة أو نفس أمّارة بالسوء .. وتلك معركتنا الحقيقية مع الشيطان

فالنفس اللوّامة تلوم نفسها علي كل خطأ أو ذنب اقترفه النفس الأمّارة بالسوء ..وهكذا فنفس المؤمن نفس لوّامة وتبقي كذلك في حالة من الاستغفار والعمل الصالح حتى عند الموت تصبح نفساً مطمئنة بإذن الله ...لذلك يقول الله تعالي: « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي»

أرأيت.. ارجعي ..النفس إذا أطمأنت في الدنيا تموت ..واطمأنت لبشري الجنة ونعيمها ...ولم يقل للنفس المطمئنة اعملي.. فلا يوجد نفس مطمئنة في الدنيا ..

شردت قليلا وتذكرت وقلت : لقد أكدت لي معني مهما أن بعد (الصدمة) وبعد أن تعافيت نفسيا بالإضافة إلي الأخذ بالأسباب وتناولت العقاقير المهدئة أن الإنسان يقوده نفسه وليس عقله

أومأ رأسه بالإيجاب ...وقال :

نعم ..لذلك يوجد (علم النفس) وبالرغم من الأبحاث والتجارب منذ سنوات طويلة ..وبالرغم من وجود علماء وخبراء بهذا العلم ..إلا أنه علم متغير وليس ثابتاً ...لأننا كلنا نتغير مع الوقت

****

وبعد عدة أشهر من اللقاءات البسيطة قلت له في إحدى اللقاءات: من الواضح أن لك فلسفة خاصة بالحياة يا د. محمد بالرغم من كونك صيدلي أي تهتم بالتجارة ...فمن أين لك هذا ؟

أجاب :من الحياة ومن كثرة القراءة والتأمل في أحوال الناس وعندما تكبر قليلا وتدخل في الحياة بشكل أعمق ستفهم كلامي بل وستزيد عليه لأن بالتأكيد زمنك سيختلف عن زماننا هذا ، كما اختلف مع من سبقونا وكما أخبرتك أن الناس ستتغير ...فستنشأ فلسفة جديدة وطرق جديدة لفهم الحياة

سألته: تقول يا سيدي ..كثرة القراءة ..أنا أيضا أحب القراءة وقرأت ولم استوعب الكثير ..فما فائدتها إذن ؟

قال: القراءة إن لم تُكسبك الوعي فأنت لم تقرأ ، لا تفكر في كاتب مفضل أو كتاب مفضل ..إنما كن مثل صاحب الورد تقطف من كل حديقة وردة ....

****

كان قد حدث لي موقف وأردت أن أستشير د. محمد فيه ....فسألته ذات ليلة : لماذا نكره بعضنا البعض ؟؟

كان سؤال وجهته إليه كقذيفة في قلب المدينة ..ومنتظر أسمع دويها..

فقال : لأننا نري أنفسنا علي حقيقتها ؟

سألت مندهشا : بمعني ؟

قال :أننا نحمل شخصية مزدوجة ، مرئية وغير مرئية ...وسأشرح لك

بمثال ...أنا مثلا أكذب ولكنني من داخلي لا أريد أن أعترف بهذا الكذب ..بل وأدّعي الصدق ، وكلما رأيت شخص ما يكذب ..استاء منه ...ليس لأنه يكذب لكنه يجسد شخصيتي الغير المرئية وأري رد فعل الآخرين علي هذا الكاذب وكأنهم يشيرون إليّ.. فأكرهه وأكره المجتمع من حولنا ...وهكذا في صفات ومواقف وردود أفعال كثيرة

توقف د. محمد عن الكلام واستقبل مكالمة هاتفيه.. بدأت أفهم ما معني أن الإنسان يحمل شخصية مزدوجة ويظل يعاني من نفسه عندما يري الآخرين ...لأن الآخرين هم الصورة الحقيقية لذاته ويفعلون ما يفعل ...ولكنه في حالة استنفار وهمي ..وبالتالي فإننا في حالة كراهية مستمرة للمجتمع الذي نعيش فيه والحل يا سيدي الكريم ؟؟ هكذا سألت

قال : مصالحه حقيقية مع النفس وفهم طبيعة الآخرين ، لأننا في حالة عجيبة من الشحن والتفريغ بسبب أوهام في مخيلتنا ...البحث عن الذات لابد له من عزلة إجبارية لكي تفهم نفسك جيدا

****

كنت في حالة هدوء النفسي مع د. محمد شحاته ، لدرجة أنني تمنيت أن لا أتركه أبدا...ولكن وصلت للمحطة الأخيرة وسألته يوما عن الحب ؟ وهل للحب فلسفة أيضا ؟

ضحك وقال: بالتأكيد له فلسفه وأن الحب أنواع ولعلك تقصد هذا الحب العبثي الذي يحدث بين شباب وبنات الجامعة ..
قالها والتفت إليّ: أوقعت في الحب ؟
تدفق الدم في وجهي ليعلن عن الخجل ...فضحك د. محمد

وقال :

لا عليك ، فهذه مرحلة نمر بها بل ونظن أنها آخر الدنيا وأن لو لم نحصل علي ما نريده ...ستقوم القيامة
وضحك مرة أخري

وكان لابد من تصحيح الأمر فقلت :

لا يا سيدي ، لم أقع في الحب ولكنه واقع وملموس وموجود بين شباب وفتيات الجامعة ، ولا ننكره وحضرتك قلت ..إنه حب عبثي!.. وأريد أن أفهم .

اكتسي علي ملامح د.محمد الجدية وقال :

لأنه ليس حُباً ناضجاً ...إنه فتره نفسية في مرحلة المراهقة ، فترة ليست لديها أي مسئولية ، وأنها حالة من التمنّي ، فالحب بناء وكما قلت مسئولية ..وأجمل أنواع الحب هو الحب في كل الظروف ...إن الحب تضحية وليس قضاء وقت ممتع فقط ، والحب خيال نود لو نعيش فيه طوال العمر ولكن الواقع مؤلم وحقيقي ، والحب اختبار صعب ..إنما ما تقوله هو فراغ عاطفي لفترة ما في عمر

الشباب وينتهي ...الكارثة هنا هم من يعيش علي هذا الوهم لسنوات طويلة

سألته : كيف ؟

قال : هناك قصص كثيرة والفكرة واحده وهو أن الشاب مثلا يتقدم لخطبة حبيبته ولظروف ما يتم الرفض ، ويحزن كثيراً وقد يتزوج من أخري ويُرزق بأطفال ..وبعد سنوات يتذكر من كان يحبها أو تُتاح له الفرصة في استعادة الحب القديم بشكل أو بآخر ...ألم أقل لك إن الحب مسئولية ونضج ..؟

ودعت د. محمد علي أمل اللقاء مرة أخري ..وقد اتفقت معه علي أن «مريم « ستتدرب في الصيدلية في الأجازة الصيفية وأوصيته عليها

ومر عام آخر وحُب مريم يشتعل بداخلي وقررت أن انتقل إلي الخطوة التي تليها (خطوة المسئولية) كما تعلمت من د. محمد شحاته ...وهي خطوبة (مريم) من عمي ....فكان لزاما أن أقول ذلك لوالدي

****

سامح: يبدو أن وليد قد بدأت قصته الفعلية والرواية ستأخذ شكل ومنحني جديد

أدهم : قفزت هذه المرة بالشكل الصحيح يا سامح

ضحك سامي وقال : بالقطع سيتحول إلي إنسان أكثر عمليا فهو

متفوق في دراسته ويُحب ابنة عمه الصيدلانية وباقي له عامان علي التخرج ...

سأل سامح في شرود : إذن متى عمل مندوبا للمبيعات ؟

لم يرد سامي ولا ادهم ....

وقال ماجد : أري في عيونكم شئ من الاضطراب ..نعم لقد عمل بالمبيعات

أدهم : كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟

سامي : ألم أقل لكم إنه سيصبح إنسان أكثر عملياً...ولكن كيف ومتى ولماذا ؟ هذا ما سنعرفه ؟ ولكن كيف عرفت يا سامح بهذه الخطوة ؟

سامح: لقد قابلت وليد يوما وجلسنا هنا في هذه المقهى وأرشدني إلي العمل بالمبيعات بل ونصحني نصائح ذهبيه ذات قيمه وإلي الآن ...اعمل بها ...

سامي : أتدرون إن وليد ذكرني بالعصب الحائر

أدهم : وما هو هذا العصب ؟

سامي : العصب الحائر هو عصب يبدأ من الدماغ وينتهي بعيدا عن الجهاز الهضمي ، ليس له مكان صريح فهو عصب مبهم ، حائر ، مسافر، متحول ...مثل شخصية وليد ..

ماجد : أريد أن أذكركم بأمر هام أن المذكرات ستقف عند الحطة

الأخيرة.. ولن تكتمل فهناك ورقات ممزقة لا اعرف أين ذهبت..

كانت جملة ماجد الأخيرة إشارة فهمها سامي جيدا...

وعليه الانتظار، ودار برأسه عبارة قالها بينه وبين نفسه، عندما يتحول الحائر، إلي لغز مُحيّر، نحتار من حيرته

(٨)

المحطة السابعة

(المواجهة)

ذهبت إلي والدي لكي أفتح معه موضوع الخطوبة من مريم ..فقد رُزقت حبها وكان عليّ أن أملأ حديقة حبنا بالأزهار البديعة كي تطير حولهم كالفراشة ...فهي حقا كالفراشة الرقيقة وهذا لن يكون إلا بالتقدم لخطوبتها ... وذهبت لوالدي

وليد : أريد أن أتقدم لخطبة مريم يا والدي ؟

اندهش والدي من الطلب المفاجئ وسأل : مريم من ؟

ترددت ولكن استجمعت شجاعتي وقلت : مريم أسامة.. ابنة أخيك

أعتقد لو أن قذيفة صاروخيه وقعت فوق سطح منزلنا لن تُدمر ما دمره أبي بداخلي ...كان والدي غليظ الطبع كأنني أول مرة أراه ..أول مرة أتعرف عليه ..كأنه شخصية أخري غير التي عرفتها طوال

حياتي ...وتحول إلي وكيل نيابة صارم والغضب يحتويه ويحيط به من كل الجهات وقال :

مريم ؟ أين وجدتها ؟ أين تعرفت عليها ؟ أذهبت إلي هناك ؟ أوصل بك الحد إلي أن تعصي أمري؟ أتريد أن تقتلني ؟، الزواج من هذه العائلة مستحيل ...أفهمت ؟، لو السماء وقعت علي الأرض.. لن يحدث ..أسمعت ؟

ولأول مرة صحت بأبي : لا..لن أسمع لك كلاما ...سأتزوجها.. سأتزوجها سواء رضيت أم لا.. كانت سهام الشر تتطاير من قوس غضبي وأصابت قلب أبي في مقتل.. وأكملت قائلا:

ما المانع من زواجي منها؟ فتاه محترمه وملتزمة و ستصبح صيدلانيه مستقبلاً .. وأنا سأكون طبيب أسنان.. ما المانع ؟

ستقول أن هناك خلافات قديمه.. أرأيت.. قديمه.. لماذا نجدد الخلافات ؟ ما الحكمة من هذا العذاب المستمر ؟

وقام من مكانه وهو في حالة ذهول لا يفهم شيئا وجدت أمي جالسة في صالون البيت بعد أن خرج أبي وأخرج غضبه في غلقه للباب وقلت لها : ما الذي فعلته يا أمي ؟ لماذا ثار أبي عليّ هكذا ؟

وبكل الحزن المعتمل بداخلها ولكن بهدوء أجابت :

أباك دائما كان لديه طموح أن تصبح طبيبا ولكنك أفقدته هذا الحلم وذلك الأمل ومررنا بحالة نفسية عميقة الجرح وبعدها التحقت بكلية

طب الأسنان وكان عزاؤنا أن تقديرك عالي وأنها أيضا كلية ذات شأن ومستقبلها مشرق ..لكن كان لك بعض التصرفات مثل التمثيل ضايقتنا جميعا وحمدنا الله عز وجل أنه أنار بصيرتك وطريقك وابتعدت عنها وبعدها تدربت في الصيدلية ولم نفهم ...والآن عرفنا ...أن السبب هي مريم ابنه عمك ....ماذا بك يا ولدي ؟ لماذا أنت غير مستقر ؟ جلست والسكون أحاط بي ومع الاندهاش العجيب الذي اعتلاني قلت : لابد أن تعرفي أنني لم أتدرب في الصيدلية ولكنني صادقت د. محمد فقط ....وهذا دليل علي البعُد بيننا وأنتم السبب في الذي أنا فيه

ارتفعت حاجبا والدتي من التعجب وتساءلت في يأس :

نحن ؟؟

قلت لها: نعم ...لماذا انتم بعيدون عنّا ؟

لماذا لا يوجد لغة حوار بيننا ؟

لماذا لايوجد أي حلقة وصل بين أبي وبيني وبين أخوتي ؟

لماذا لا يوجد يوم عائلي نجتمع فيه سويا ؟

لماذا لا تعرفون عنّي شيئا ؟

إنني بالكاد أري أخوتي البنات ورغم زواجهن فهن بعيد أين نحن ؟؟ غريب أمركم ..أنتم تحلمون ونريد أن ننفذ أحلامكم بدون أن نفهم ...ونخرج جيلا بلا وعي فقط لأنكم الكبار ونحن الصغار ...لماذا لا نشارككم في الحياة ..أنا لا اعلم عن راتبك شئ ...أنتِ أو راتب والدي ..أنا لا علم

لي بمصاريف البيت ..ولا كيف تديرون شئون المنزل ...لماذا؟ كان من الطبيعي أن أتخبط في طريقي ولكن أين أنتم من هذا التخبط.. كانت أمي تستمع إليّ وكأنها تقول في نفسها .. متى كبرت يا وليد ؟

وبعد أن هدأت دقات قلبي وانتظمت أنفاسي أكملت : إن الله إذا أراد أمراً يَسّر له أسبابه ..ولعل كل ما حدث لي خيرا لا أعلمه ..ولكن الفجوة التي بيني وبينكم عميقة ...وبها الكثير من قلة الإيمان والتوكل علي الله... سأتزوج مريم .. سأحقق حلمي ..

قلت عبارتي الأخيرة وقمت مسرعاً إلى خارج المنزل ولم أكن أنتظر أي رد من والدتي ....فكانت في حالة تفكير ..

****

مريم تذكرت ما حدث بين وليد ووالده ...فقد كانت تنتظر الرد ..وبعد أن كلمني وليد ورفض والده ...ذهبت إلي مدونتي مرة أخري وسطرت ..

إن كنت لا تراني فأنا أراك بقلبي، إن كنت بعيدة عنك فأنا قريبه ولكن لا تشعر بي ، أحس بك.. بغيابك وبحضورك ..دافع قوي داخلي يوجهني إليك أينما ذهبت ...

صدقني يا سيدي ، إن كان حبك لي تحديا لكل ما في العالم.. أنا أكثر منك تحديا ولا يعنيني الناس، سأكسب التحدي ..بقربي منك .. فحبي لك صموداً أمام كل الحاقدين، أنا أتحداهم كلهم، لن أتخلي عنك أبداً،

لا وألف لا بل ومليار لا.. للاستسلام، فالاستسلام ضعف، وبحبك سأزداد قوة .. فلن أقبل أن أكون ضعيفة.. لن تغيب شمس حبنا.. لأن أسمح لليل أن يتقدم

****

مريم قررت أن تخطو خطوة إيجابيه وجادة وذهبت بنفسها إلي بيت عمها - والد وليد - لتعرف ما السر من رفضه للزواج بها ، وما ذنبهما إذا كانت هناك خلافات قديمة ، وأنها ووليد سيكونان أسعد زوجين ..وأنها ليست سيئة وأنها طالبة بكلية الصيدلة ووالدها ثري وعائلتها محترمه ..غير أنها تعشق وليد

وبرضي أبيه وأمه سيكونان أسعد اثنين في العالم

ذهبت وشمس قلبها في سطوع فهي علي أمل أن تنجح في مهمتها قبل المغرب وصلت إلي البيت وصعدت إلي بيت عمها ودقت جرس الباب يصاحبه سرعان في دقات قلبها ..لم يفتح احد ، عاودت المحاولة ..دون أي رد فعل ايجابي ..طرقت علي الباب عدة مرات وكانت النتيجة سلبية

****

خطر في بالها أن الطريق مسدود ولن يفتح ولن تضطر إلي القفز فوق النتائج ...وانتظرت خمس دقائق ...بلا فائدة

وبدأت تنزل سلالم المنزل وقدرا فتح الباب علي صوت وليد وهو يسأل ...من ؟

صعدت مريم مرة أخري ...وأفاق وليد من نومه بعدما رآها واتسعت عيناه مندهشا وقال : مريم ؟!!

ضحكت مريم وقالت : نعم ...يبدو انك كنت نائما ..عذرا...

ارتبك وليد من المفاجأة ثم قال : آه ..تفضلي

****

تذكرت مريم ...كانت خمس دقائق فاصلة ...كانت خمس دقائق من الممكن أن لا يحدث ما حدث بعد ذلك ...وتساءلت فيما بينها هل حقا خمس دقائق قد تغير من حياة إنسان إلي هذا الحد ؟ من النعيم إلي الشقاء .. جلست مريم وتذكرت ....

****

جلست مريم في صالون المنزل مثل أي ضيف وتأملت الشقة من حولها في حين كان وليد يستبدل ملابسه وبعد دقائق عاد حاملا صينيه الشاي وكوب ماء وجلس أمامها

وليد : أهلا وسهلا ..البيت ازداد نورا

ضحكت وبدت كأنه طفلة بريئة وقالت : شكرا انه نورك يا وليد..

لقد حضرت لكي أزور عمي وأفهمه أننا ليس لنا أي ذنب في خطأ ارتكبوه الكبار فنحن جيل جديد مختلف عنهم تمام نحن ضحية أفكار ومشاكل جيل قديم بسبب المال ..وأين المال ؟ وما دخلنا بها ؟

وليد : المشكلة الحقيقية يا مريم أن .. وقبل أن يكمل جملته دخل والد وليد للمنزل .. ووجد مريم وبالقطع لا يعلم من هي فسأل : أهلا وسهلا .. من حضرتك ؟

بابتسامه رقيقة أضافت جمال فوق جمال مريم قالت :

أهلا يا عمي ...كيف حالك ؟

اندهش والده وقال : عمك ؟

مريم وهي تمد يديها للسلام : إنا مريم ابنة أسامه .. أخيك و.. لم تكمل جملتها....فقد أظلمت الدنيا فجأة أمام عينها ولا تدري بالذي حدث...

(٩)

بحث أدهم عن الشيخ سمير ..حتى وجده أخيرا في إحدى المساجد وقابله بعد صلاة العصر وعرّفه بنفسه وقص عليه قصة وليد كاملة وكيف كان له تأثيرا إيجابيا في حياته، وبالقطع تذكر الشيخ سمير كل شئ وطلب أدهم منه عنوان والده ووالدته أو زوجته حتى يعرفوا باقي التفاصيل

ولكن كانت هناك مفاجأة قوية في انتظار أدهم أن الشيخ سمير كان شاهدا علي كل المواقف التي حدثت لوليد..

أمسك أدهم بحلقة الوصل واتفق معه علي أن يتقابلوا عند المقهى بعد التراويح كما يحدث كل ليله..

جلس الشيخ سمير مع الأصدقاء الأربعة وبعد أن قص عليهم زيارة مريم لبيت عمها وقال :

لقد حضر وليد إليّ بعد أن ذهبت مريم إليه في منزله ووصف

والده انه كان غير طبيعيا و عندما أمدت مريم كفها للسلام علي عمها قام بضربها بكل قوة علي وجهها وبكل غضب وعنف قال: أيتها العاهرة ...لماذا أنتي قادمة الآن؟ ماذا تفعلون معاَ ؟ أتريدين الفضيحة ؟ لابد أنك قادمة لكي تطلبي العطف وأوافق علي زواجكما ...تريدين المساومة أيتها العاهرة ...؟

لم تنطق مريم بل أغمي عليها من الصدمة ...ووقعت علي الأرض وقام وليد وألقي بكوب الماء علي وجهها تحاول أن تفيق ...بلا جدوى ...في نفس الوقت جري والده نحو الباب وفتحه وصاح :

يا أيها الناس ..إنني رأيت الفعل الفاضح في بيتي ...إن ابنة أخي المومس تريد الزواج من ابني الغبي هرول وليد إلي أبيه محاوله إسكاته: أبي.. أبي.. لم يحدث شيئا.. بالله عليك كفي .. لماذا كل هذه الفضائح؟

احمرت عيون والده وصاح فيه : فضائح ! يا كلب... يا مغفل..إلي متى ستظل معتوها.. أيها الوقح.. أيها الغبي.. أنت لست ولدي.. أنا لا أعرفك...هيا ..احمل هذه العاهرة.. لا أريدك .. وبعد أن فرغ الشيخ سمير من كلامه..تعجب الجميع

سامي : لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله

سامح: بالقطع الجيران صدقوا هذه المهزلة فنحن نعشق الفضائح.. الشيخ سمير: الشماتة والخبث واللؤم كانت في عيون الناس وعلي ألسنتهم ..الناس ليس لها إلا الظاهر.. رغم أنهم مع بعض منذ

سـنوات بعيـده ويعرفـون أخـلاق وليـد جيـدا لكـن للأسـف.. حـتى والـده ظـل مصدقـا لهـذه القصـة والـتي كانـت مـن تأليفـه إرضـاءً لغـروره وكِـبره وبـدلا مـن السـتر...كانت الفضيحـة

سامي : وبالقطع تزوجوا منعا لهذه الفضيحة

الشـيخ سمير : لا ..والـد مـريم كان عاقـلاً ...وذكيـاَ فقـد تمـت الخطوبـة بشـكل طبيـعي وتأكـد أن ابنتـه سـليمة وان وليـد لم يلمسهـا أبـدا وان ليـلة البنـاء بعـد سـنه مـن الخطوبـة وسـيتم الأمـر بشـكل طبيـعي جـدا.. وخصوصـا إن الاثنـين مازالـوا يدرسـون

سـامي : نعـم.. حـلا منطقيـا وعاقـلا إلي الآن.. واعتقـد انـه مـع الوقـت عمـل مـع ماجـد في العيـادة ...

الشيخ سمير : لا ...عمل مندوبا للمبيعات ..

سـامي : واضح أن وليـد قبـل تحـدي والـده.. وتحـدي نفسـه وعم منـدوبا لمبيعـات ..لكي يكـون هنـاك مصـدرا للـرزق..

ادهم : أكيد ...لكن لن أغادر إلا لمعرفة ما حدث ..أكمل يا ماجد

*****

المحطة الثامنة

التحدي

بعد أن طُردت من منزل والدي ومعي « العذراء « مريم، ذهبت بها إلي بيت والدها وحملنا كل صدمات العالم فوق عقولنا وقلوبنا فقد غابت الشمس ولم يظهر القمر ليلتها

والدي أكسبنا سيئة وأحاط بنا خطيئة لم نرتكبها ..تركت مريم في حالة إعياء وذهبت وأحضرت طبيب والشيخ سمير وحكيت كل الذي حدث ...

أحيط بنا الظلام من كل فج عميق وودت لو عمري ينتهي عند هذا الحد ...فإصابة مريم بوعكة نفسية كانت سهم قاتل من والدي في عفتها ..مريم العذراء لم تخطئ ..ومع ذلك صدقوا الناس كلام أبي !! لا عجب فقد حدث ذلك مع السيدة مريم والسيدة عائشة ..الناس هي الناس ولو اختلفت العصور حتى وإن كان هناك نبي مُرسل إليهم

خصص عمي الشقة التي فوق شقتهم لأعيش فيها وهي ليست مفروشة كاملة ولكن استطيع إن أنام فيها بهدوء ..هدوء ! أين الهدوء ؟ وكل شئ من حولي صاخب غاضب !

طمأننا الطبيب علي حالة مريم وأنها صدمة عصبية مؤقتة ودعي لها الشيخ سمير وتمني لها بالشفاء العاجل

وثان يوم أحضرت باقي ملابسي وكتبي من البيت بدون علم أبي وبمساعدة أمي المسكينة فقد كانت متعاطفة معي ولكن بلا فائدة

واجهني عمي وأخبرني أن الشقة التي أسكن فيها ستصبح شقة الزوجية فالعمارة كلها ملكه الخاص وإنني سأبقي هنا حتى يتم الزواج العام القادم.. ولأنه بلا أبناء ذكور اعتبرني ابنه وتعهد برعايتي، بقيت وحيدا في الشقة ..ولأول مره أبكي بكل ما أوتي بي من ضعف كنت أحترق من داخلي ..وكادت جروحي تصرخ مما كنت فيه ...لماذا حدث كل ذلك ؟ لم أتحمل كم الظلام الذي كنت فيه ..ونمت وأنا في شبة غيبوبة واستيقظت ثان يوم بلا ملامح ....ودعاني عمي لتناول الفطور

دخلت منزلهم وكدت ألا أعرفه ...ليس هذا البيت الذي حضرته من قبل...انه مختلف لقد حلّ الحزن مكان الفرح حتى هُيئ إليّ أن جدرانه تبكي من الغم والهم

وتساءلت بيني وبين نفسي ..ما ذنبكم أيتها العائلة الطيبة ؟

ما ذنب أن يتحول هذا البيت من جنه إلي جهنم ؟

وكان عليّ أن اتخذ قراراً وهو العمل ...لابد أن اعمل أي شئ بجانب دراستي فلن أقبل أن يتحمل عمي مصاريف إضافية ليس له أي ذنب فيها وحتى أكبر في عين مريم ...سأكون رجلا لها

ذهبت لأحدي شركات الأدوية ومن خلال الواسطة والمعارف التي بحثت عنها بكل قوة، تم قبولي بدون أوراق لأنني سأعمل بشكل مؤقتاً وليس دائماً ...فكنت بحاجه إلي المال حتى أكون جديرا بثقة (مريم) وعلمت بمهمتي الجديدة كمندوب مبيعات وأن عليّ أن أعمل مندوب تحت التمرين مع زميل يُدعى(أيمن) حتى أعرف مع من نتعامل من صيدليات ومخازن أدوية وشركات توزيع للأدوية وفترة التدريب مدتها ثلاثة أشهر وبعدها سوف يتم نقل ماجد إلى فرع آخر من فروع الشركة

من هو أيمن ؟

شاب في الخامسة والعشرين من العمر خريج كلية التجارة مثلي شخصيته لها جاذبية خاصة فهو مرح وإنبساطى ومرن ولطيف الكلام وهي مميزات مندوب المبيعات الجيد لذلك فهو ناجح جدا بل ومحترف وفاهم لحركة السوق بتقدير امتياز وعيبه أن قفصه الصدري مرتع للتبغ وأعتقد أننا لو قمنا بعمل أشعة سينية لقفصه الصدري لوجدنا كم من الخطوط البيضاء دليل علي شراهته في التدخين غير أنه يملك عيباً ولكنه يعتبره ميزه وهو (الكذب)

فهو يعد مثلا صاحب صيدلية بأن يُورّد له الأدوية في الغد ..ولا يحدث، أو أنه سيأخذ إشعار مرتجع للشركة ولا يفعل.. وعندما يواجه هؤلاء فإنه يرمي بالعيب علي الشركة ويتهمها بالتقصير وأنه مجرد موظف ليس بيده شئ ..!!!

بعد أن أصبحنا صديقين واجهته يوما وأخبرته بأن ما يفعله يُسمى كذباً وهو من أرخص الأساليب في التجارة ضحك من كلامي وقال كلاماً جديداً في عالم التسويق :

يا عزيزي.. إن عليك أن ترفع كل ماهو قذر متواجد علي الأرض وتضعه فوق رأسك وعلى لسانك لكي تعيش وتستمر في عالم التسويق والذي أُسس بنيانه على الكذب والخديعة

كنت علي موعد مع الاندهاش مع هذا المنطق المغلوط وتذكرت د. محمد شحاته وأن منطقه وفلسفته عكس هذا الكلام تماما ورويت لزميلي ماجد عن د. محمد وعن أخلاقه وكيف اكتسب احترام الجميع بسبب علمه وأخلاقه وبجدية وكأنه يُلقي عليّ خبرته بالحياة

قال أيمن : لابد أن تفهم أمرا وهو أن صيدلية الشعب وغيرها نشأت منذ سنوات بعيدة وكان العدد قليلا تكاد تُعد على الأصابع وكان وقتها يجب التميز بالعلم والاجتهاد لأن السوق الدوائي لم يكن به كم هذه الأدوية ولا كم من شركات أدوات التجميل غير أن تركيب الأدوية كانت صفة مميزة لكل صيدلي أما حاليا كما ترى الصيدليات انتشرت في كل شارع وستصبح عددها أكثر كما قالوا لنا في إحدى الاجتماعات في الشركة

بسبب الأعداد الهائلة التي ستتخرج من كليات الصيدلة تذكرت مريم ومستقبلها المهني.. ثم أكمل حديثه :

وأن هناك طفرة غير عادية ستخرج للسوق قريبا ، وبعد عدة سنوات كما هو مُتوقع أن سيكون بكل حارة ..صيدلية ومجال التميز هنا سيكون تجاريا وليس علمياً لذلك يا صديقي المرونة وسرعة البديهة وحُسن التصرف هم أساسيات نجاح مندوب المبيعات ولو بالكذب!!

****

كنت أتأمل عباراته وأشرد في الواقع المؤلم وفكرت ماذا لو كنت طبيباً، هل كنت سأتميز بالعلم أم أنني سأستغل العلم من أجل التجارة !!

أفقت من شرودي علي قوله: سأروي لك قصة ذات يوم أردت أن أدخل بعض من الأدوية التابعة للشركة لإحدى شركات البترول وبالفعل ذهبت وسألت عن المسئول في صيدلية الشركة ووجدته طبيباً وتعجبت كيف لطبيب أن يكون مسئولاً عن صيدلية !! ولكن بالواسطة من الممكن أن تعمل عملاً غير عملك أو إضافة إلى عملك وبالتالي يزداد الراتب

قابلته ووجدته رجلاً عصبياً وسمجاً وضخم الجثة ولسانه أطول من نهر النيل ويتعامل مع المندوبين كأنهم خدم عنده كان شخصية مريضة... وتعاملت معه بكل مرونة وبما يلاءم شخصيته

حتى قال لي :أنت يا أيمن مندوب مرن ومتميز وستكبر في عالم التسويق كثيراً ، استمر في عملك

أنا كنت في أول العمل مثل الفتاه العذراء التي تخجل من كل شئ.. وماذا حدث ؟ انخفاض في المبيعات لدرجه أنها هددتني بأن أكون بلا عمل ..لذلك رفعت بُرقع الحياء وصبغت لساني بالألوان و أصبح لي وجوه كثيرة غير وجهي ، حتى أنني نسيت ملامحي.. ليس مهما.. فالحياة قذرة بكل الأحوال.. كاد عقلي أن يطير بما أسمعه و ما هذا التناقض البشع بين الفلسفة الخاصة لجيل مضى متمثلا في د. محمد شحاتة وفلسفة واقعية متمثلة في جيل أيمن وكان سؤالي أين أنا من الجيلين؟

آن الأوان أن أعترف.. أن الجيل قد اختلف

****

لاحظت أثناء تجوالي مع ماجد في أرض السوق التي لا تهدأ من صعود وارتفاع أنه عندما يذهب إلي بعض أمناء مخازن الشركات فإنه يضع في جيبه عملة ورقية وقدرها عشرة جنيهات ويعطي لآخرين خمسة جنيهات !!

وذلك مقابل طلب توريد بعض أصناف الأدوية.. أخبرت ماجد باستيائي لهذا الموقف.. فقال :

لماذا ؟ لكي ترفع نسبة المبيعات وتحصل علي (نسبتك من المبيعات)

لابد من أن تفعل كل شئ ..وأنا أدفع من هذه النسبة التي أحصل عليها مقابل نسبة أكبر وهكذا ..فأنا أدفع عشرة جنيهات وأحصل علي نسبة مائتي جنيه ...وهكذا ...بعيدا عن الراتب الأساسي ....وليس الأمر شهريا إنما لابد أن يكون لديك جهاز حساس للمبيعات وقراءة لمؤشر السوق.. ومتى يصعد ومتى يهبط.. ومع كثرة الاحتكاك ستعرف هذا جيدا لأول مرة أغضب حتى احمر وجهي وبعيون مشتعلة قلت:

كفى منطقا مغلوطا إنها رشوة ..أنت تُرشي أمناء المخازن وهم غير أمناء بالمرة ..إنهم مخادعون ...الراشي والمرتشي في النار...ما هذا الوحل الذي انغمست فيه .. ؟؟

لم يرد عليّ وتركني.. وكأنه يقول ..ستفهم كل شئ في وقته

وجاء وقت الرحيل.. واستلمت العهدة من أيمن وكنت قد تعلمت القيادة، و حصلت علي رخصة قيادة في هذه الفترة وقبل أن يتركني نصحني بأن أحذو حذوه وأن أسير بنفس المبدأ سخرت منه وأخبرته إن هذا ليس مبدأً إنه بناء خاطئ ولو المجتمع كله بهذا البناء فاستمع لهذه الآية «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»

ابتسم بلا أمل ومط شفتيه علي أمل أن أفهم لاحقاً ودعي لي بالتوفيق تركني وصممت علي أن أضع بصمتي الشخصية في عالم التسويق ...لعلي أكون مثالا يحتذي به.

بعد شهرين على عملي قام المدير الخاص بي باستدعائي وقال غاضبا: المبيعات انخفضت طوال الشهرين الماضيين يا وليد ...لماذا؟ بعد أن كان المنحني في صعود أصبح في هبوط ...ألم تتبع أسلوب أيمن ؟؟ما الخلل الذي حدث؟ أحذرك من الانخفاض المستمر...ولا تنسي أنك غير مُثبت إلي الآن.. خرجت من عنده كاظما غيظي والغضب مكتوم بصدري وكأنني رأيت شبح أيمن عند باب الغرفة وهو يسخر منّي.

خرجت تائها وبدون وعي ذهبت إلى السوبر ماركت واشتريت علبة من التبغ لأحرقها قبل أن أحترق ..وذهبت إلى مكان بعيد وجلست طوال الثلاث ساعات أفكر ..ونظرت إلى عمود الدخان وتسلل الشيطان إلى رأسي فلابد أن أحرق فكري وعقلي كما أحرق هذا العمود.. وأُحيطت بي الأسئلة من كل مكان ...

لماذا فعلت ذلك يا أبي ؟

لماذا تركتني ؟

لماذا طردتني ؟

من أنا ؟

هل أنا من المنافقين ؟

لماذا أفعل ذلك ؟

ما هذا السراب ؟

ما هذا الذل والعار ؟

الرشوة والكذب هما قاعدتان رئيسيتان لتحقيق النجاح.. إنه المنطق المُعوّج والمعظم يعمل به.. والباقي يعاني منه
أيكون هو التيار الطبيعي ..؟

وإذا سرت ضده اجرفني وابتلعني ...وأغرقني !!!

وكما دخل الليل بظلمائه ..دخلت أنا في ظلام عقلي وشبح أيمن يجلس أمامي ويردد نفس الكلام

إن عليك أن ترفع كل ماهو قذر متواجد على الأرض وتضعه فوق رأسك وعلي لسانك لكي تعيش وتستمر في عالم التسويق والذي أُسس بنيانه علي الكذب والخديعة

قمت من مكاني وعلبة التبغ أصبحت فارغة من عواميد الدخان وعقلي أيضا أصبح فارغا من المبادئ والقيم.. واعتذرت لشبح أيمن وقبلت أن يسكن شبحه داخلي

بعد مرور ثلاثة أشهر ارتفعت المبيعات بشكل ملحوظ فقد سرت خلف خطوات الشيطان و استسلمت للرشاوى وللكذب والمرونة الخادعة والضلال المبين وزارني شبح أيمن وهو يصفق لي

****

تعبت من الكذب فقد كانت فترة صعبة ..لقد تبدلت تماما وأظهرت شخصية غير شخصيتي..

لا اعـرف كيـف حـدث ذلـك ..!! كيـف يتغـير الإنسـان ويتحـول إلي شـيطان ..!!

بهـدوء تذكـرت الآيـة الكريمـة «فَخَلَفَ مِـنْ بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ أَضَاعُـوا الصَّـلاةَ وَاتَّبَعُـوا الشَّهَـوَاتِ فَسَـوْفَ يَلْقَـوْنَ غَيًّـا إِلَّا مَـنْ تَابَ وَآمَـنَ وَعَمِـلَ صَالِحًـا فَأُوْلَئِـكَ يَدْخُلُـونَ الْجَنَّـةَ وَلا يُظْلَمُـونَ شَـيْئًا»

فهـذا الـذي حـدث معي.. أضعـت الصـلاة واتبعـت الشهـوات.. انتكسـت أخـلاقي وأضعـت الصـلاة وأصبحـت شرهـا للدخـان وأصبـح إعطـائي للرشـاوى شـيئا تقليـديا وخفـت عـلى نفسـي مـن الضيـاع.. كرهـت نفـسي وكرهـت شخصيـتي الجديـدة التـي هي غـير شخصيـتي الحقيقيـة.. مـا الحـل ؟؟

إنـني في صراع بـين شخصيـتي وشخصيـة أيمـن الـتي كرهتهـا وقبـل أن أعـود إلى مـنزلي سمعـت الآذان.. إنهـا صـلاة العشـاء.. لبّيـت النـداء ودخلـت المسـجد واسـتحييت مـن أن تتواجـد في جيـبي علبـة الدخـان ..فألقيتهـا في سـلة القمامـة وأثنـاء وضوءي شـعرت أنـني أقوم بإزاحـة شـبح أيمـن مـن داخـلي ولأول مـرة منـذ فـترة طويـلة شـعرت بالنـور عـلى وجهي .. وقمـت بركعتـين تحيـة المسـجد وبعـد أن فرغـت مـن صـلاتي جلسـت أفكـر في حـالي وكيـف أسـتقيل مـن عمـلي ومـا هـو البديـل ؟

وتذكرت قوله تعالي: "الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ

يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم»

انتبهت لإقامة الصلاة ووقفت بين يدي الرحمن

ورفعت يدي لتكبيرة الإحرام وكأنني أزيح وساوس الشيطان من أذني وهو يعدني بالفقر.. وقرأ الإمام سورة الفاتحة وأتبعها بسورة الضحى

"وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ»

وقعت الآيات في قلبي وكأنني أول مرة أستمع إليها ...ولم أشعر بحالي ولا بانتفاض عيوني وبكيت ولم أشعر بنفسي إلا في السجود ...وأنا أدعو الله أن يغفر لي وأن يشرح صدري دعوت بكل جوارحي وجسدي كله يرتعش حتى قمنا للركعة الثانية وسمعت سورة الشرح

"أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ»

كاد أن يُغمى عليّ من البكاء والنحيب ..حتى فرغنا من الصلاة لأجد من حولي دامعة عيونهم وأصبحت الصلاة حالة روحانية ورزق للجميع خرجت من المسجد ووجدت مطوية من مطويات المسجد ...فأطلعت عليها فإذا بحديث نبوي شريف يقول "مَنْ تَرَكَ شَيْئًآ لِلّهِ عَوَضَهُ اللهُ بِخَيْرٍ مِنْه» عزمت بجدية على ترك العمل وصرفت كامل مستحقاتي وكنت فرحاً بهذه الخطوة وانتصرت على شيطاني وسط دهشة الجميع

سامح : أظن أن دهشتنا أكبر من الجميع

ماجد : هذا حقيقي ...لقد وصلنا للمحطة الأخيرة من مذكرات وليد.. وكما قلت هناك أوراق ممزقة

الشيخ سمير: لا تخشي شيئا.. أنا سأكملها لك..

سامي : نعتذر لك يا شيخ سمير...ولكن نريد أن نعرف ..

(١٠)

لم تكن تعلم أن بعض الأوراق التي بحوزتها هي بقايا محطات من رحلة وليد والتي من قدرها أنها شاركته هذا الرحلة ، كانت تتذكر الأحداث التي حدثت جرّاء رفض والد وليد للزواج منها وبعدما ترك وليد العمل بالمبيعات ..وأهمل كليته مما أدي إلي رسوبه ...حدثت له أزمة نفسيه عميقة.. ازدادت عمقاً وسلبا فيما بعد ولم يكن هناك أي مخرج سوي القدر.. عاودت القراءة

المحطة التاسعة

(باب الأمل)

بعد أن تركت العمل كمندوب للمبيعات ولأول مرة أرسب في حياتي الدراسية وطردي من بيت والدي وعدم موافقته علي زواجي ممن أحب ..بالإضافة إلي مقاطعته لأجل غير مسمي ...جعلت الحياة ليس لها أي قيمه ...جلست في حجرتي المظلمة لأراجع فيلما عن حياتي مع والدي ...كلها مليئة بالعذاب والقهر ومحو لشخصيتي ...

ولم يخرجني من غياهب الجُب إلا عمي أسامه الذي أنزل لي حبل الأمان وفي آخره طوق النجاة فقد حكي لي عن والدي

انه في الزمن البعيد جدا كان والدي علي خلاف دائم بوالدتي بسبب عدم الإنجاب لفترة طويلة وبعدها رُزق بفتاتين وكان يريد (الولد الذكر)وبعدها حملت والدتي وكانوا في خشية أن تكون فتاة ولكن بفضل الله وُلدت أنا ...لذلك أعطي لي اسم (وليد) فقد وُلدت بعد شوق كبير وأن أبي وُلد من جديد .....ثم رُزق بأختي

الصغيرة ..لذلك كان شديد الديكتاتورية معي ..خشي أن أتدلل من والدتي ومن حولي الفتيات فأحكم الغطاء عليّ وحاول إلغاء شخصيتي ...فقد كان مريضاً بي ...مريضا بالحب الغشيم الذي يقتل ولا يُحيي ..كان يظن أنه يُحسن صنعاً وهو في الحقيقة يقتلني بسكين بارد ...لقد خنقني حتى كسر ضلوعي

إن الفجوة التي كانت بيني وبينه بسبب انه لم يدرك أنني سأكبر في العمر مثل باقي الناس أو مثل باقي إخوتي البنات ..إنه مازال محتفظ بي طفلاً في سن الرابعة ...أي أنني لن أكبر ولن أعرف مصلحتي وعليّ السمع والطاعة فقد كنت أسير هذا الضياع النفسي حتى ظهرت مريم في حياتي وعلمت أنني ناضجا ولي مشاعر وأحاسيس وإن أنا أصلح أن أكون إنساناً

تذكرت صديقي القديم د.ماجد وقد تخرج من كلية طب الأسنان وعلمت أنه أستأجر عيادة ..تلك التي أكتب فيها حاليا ..وذهبت لعله يرشدني إلي الطريق المنير ..فقد وقف عقلي عن التفكير

صديقي ماجد مثالا للرجولة الحق والصديق الحميم وأخبرته أنني خطبت لإنسانه أعشقها بدون أي تفاصيل ..وأريد العمل خاصة أنني لم أتخرج بعد ...

وفكر في حل أرضاني وهو العمل معه ..كمساعد في العيادة لفترة حتى أتابع بعض الحالات ثم يترك لي العيادة بعد انتهائه منها لعدد ساعات من الليل ..واتفقنا علي المواعيد من ١٠م-١م

وأنني استأجر منه هذه الساعات مقابل مبلغ بسيط نظير الكهرباء وبعض الأدوات التي تُستهلك في العيادة أما الباقي ككشف المرضي والتركيبات فكلها لي ، مما أعطاني دخل مالي جيد أستطيع أن أعيش به حتى لو تزوجت، كم أنت إنسانا يا ماجد..

بدأت الثقة تعود إليّ بعد أن تخلت عنّي لفترة من الوقت ...وأعطاني دافعاً قويا لأن أستكمل دراستي ..وخصوصا أن ليس لدي خدمة عسكرية ومن الممكن أن أحصل علي خبرة كبيرة من هذا العمل تؤهلني أن أكون طبيباً محترفاً في المستقبل .

وجاءت البشارة كمن والد مريم أنه قام بتأسيس شقة الزوجية وحصلت علي أسبوعين أجازة وتزوجت رغم عدم حضور أي فرد من أفراد عائلتي وتجرعت الألم والمرارة من هذا التجاهل إلا أن حبيبتي مريم أذاقتني حلاوة الحب فقد عانقت العشق وارتويت من بئر الحنان..كم أنتِ جميلة يا مريم.. لو بحثت عن قلب مثل قلبك فلن أجد ..أنتِ أخر نساء الأرض.. لقد جعلتِ حياتي مشرقة من جديد بعد أن ساد الغيوم لزمن ليس بقصير وتمر الشهور مابين العمل مساءً والحضور في الكلية صباحًا، لم يخفف عنّي هذا العبء إلا فرحة رُسمت علي شفتي مريم وقالت : أنا حامل

لم أتمالك نفسي من الفرحة وقفزت من مكاني . . سأصبح أباً .. أخذتها بين أحضاني وذقنا حلاوة الحب الحلال "

قال الشيخ سمير وهو بين أصدقاء وليد : علمت من وليد بأمر زواجه وعمله مع د. ماجد وحاولت الذهاب إلي والده كي استرضيه وأستعطفه ولكي يرق قلبه وقدراً وجدت فرصة ممتازة ، فقد نقلوا في بيتهم الجديد ..فقد ورثت الأم مبلغا ضخماً من الأموال واشتروا قطعه أرض وبنو عليها عماره ذات ثلاثة أدوار وبالفعل ذهبت للمباركة والتهنئة والتحدث عن ولدهم وخصوصا بعد زواجه

قال سامح : عذرا يا سيدنا الشيخ ..لماذا كل هذا الاهتمام بصديقنا وليد ؟

الشيخ سمير : لقد اهتممت بالمبدأ وليس بالشخص وليد منذ أن عرفته وهو طائع لوالديه وأيضا مجتهد في دراسته وأنه لم يفعل الحرام بل سعي لطلب الرزق وبالحلال وسعي للزواج وبالحلال... سعي لصلة الرحم ..كان يسعي للخير دائما فكيف لا أقف بجواره في أزماته ...والده ابتعد عنه وقيّده بقيود لم يستطع أن يهرب منها ، وليد كان في حاجه إلي الأبوة وليس إلي سجّان ...

سامي : كلامك صحيح يا شيخ سمير وقد حللت للإخوة من خلال مذكراته نفس كلامك ...فهو كان في حاجة إلي الرعاية الأبوية ...وهذا وجده في مدير المدرسة ود. محمد شحاته ..بعد أن تبيّن له أن المكتبة في منزلهم ما هي إلا قطعة ديكور..فهو في حاجة إلي العلم والثقافة والفلسفة والمنطق لأنه كان يهوي النقاش من صغره وأنا علي ذلك من الشاهدين وتقصه لدور الإرهابي كان للفت الانتباه فهو يعلن عن نفسه بشكل من الفطرة السليمة وكأنه يقول أنا

هنا... وبدلا من أن يأخذه والده في حضنه ..استهزأ به وبمشاعره ...

واعتزل كرة القدم لكي يرضي طموح والده في أن يلتحق بكلية الطب والأحداث التي حدثت له أنت تعلمها يا فضيلة الشيخ ..حتى ظهرت مريم في حياته ...والكارثة أنها ابنة عمه وتساءلت لو أنها لم تكن كذلك هل الوضع سيتغير ؟

أجيب بكل ثقة ..أبدا ...سيبحث والده عن عروس له وسيزوجه بمعرفته هو.. أما علاقته بأخيه تاجر السيارات سيؤدي بنا إلي نقطة غير مفهومة ويجعلنا نسأل : هل حقا كان هناك إرث ومال اغتصبه إخوته منه ؟ أم أساء الظن بهم ؟ أين الحقيقة ؟ لأن هذا ما ترتب عليه فجوة عميقة بين الأخوات مستقبلاً

كان الجميع يستمع إلي سامي وعقلهم يعمل.. معه

ثم أكمل الشيخ سمير قائلا : بعدما ذهبت إلي والد وليد ..وجلست معهم وأخبروني أنهم اشتاقوا إلي وليد ...وأنهم افتقدوه حقا طوال الفترة الماضية وأنه تزوج ولا داعي لهذا الفراق ..وقد رضوا بالأمر الواقع .. وأنهم لم يفرحوا بالبيت الجديد لغيابه وطلبوا منّي أن أعود به هو زوجته

****

كانت دموع مريم تسبق قراءتها لآخر ورقة في مذكرات وليد .. وقرأت

" إذا كانت المصائب لا تأتي فرادي فأسباب السعادة أيضا لا تأتي فرادي ...فقد علمت بحمل زوجتي و أيضا حمل الشيخ سمير خبرا لزيادة سعادتي وهو الاستعداد لزيارة والدي ولكنه اخبرني إنني سأعيش هناك معهم في شقتي الجديدة

فأنا حاليا في قمة السعادة لأنني سأختم هذه الرحلة بآخر محطة سعيدة لنا جميعاً ..سأصفح عن الكل سأعمل باجتهاد وسأنهي العام الدراسي الأخير بكل حيوية ونشاط

سأذهب إلي مريم وسأزف لها هذا الخبر السعيد ..لتزيد سعادتها أيضا ..وكما يقولون أن رزق البنت واسع فقد علمت أن سأرزق ببنت ...ولكن لن أفعل مثلما فعل معي أبي ...سأكون لها أباً ...

لم يبق إلا هذا الحلم المزعج لن أدونه الآن ...والذي لم أفهم دلالته...فقط لأنني في حالة فرحة ....."

بعد أن انتهت مريم من قراءة هذه الأوراق بكت بحرقة ...فهي شاركت في باقي المحطات بدون أن يسطرها وليد فهي بلا مذكرات لأنها كانت بطلة الفيلم القادم بلا منازع

****

أكمل الشيخ سمير وقال : كانت حالة وليد تستدعي التصوير فهذه هي المرة الأولي التي أراه فيها في حالة سعادة كاملة ..وذهبت معهما لكي يطمئن قلبي وأن استقبال والده سوف يتم علي أكمل وجه

انبسطت أسارير وليد عندما رأي عمارتهم الجديدة و كاد قلبه ينخلع من المجهول الذي ينتظره فإما مفاجأة سارة أو كابوس مزعج

صعد وليد وسبق مريم والشيخ سمير..وبلهفة دق دقات سريعة علي جرس الباب وفتحت له أمه وما إن رآها

ارتمي في حضنها بقوة حتى كادت أن تسقط من وقفتها وانهمرت الدموع من عيون الجميع زخات ، أحضان وقبلات فوق الرأس وعلى الوجه وعلي الصدر واليد حتى انحني لتقبيل قدمها ... وما أن انتهي غرقت مريم في أحضان والدته

وخرج إليهم والد وليد من حجرته وقفز عليه وليد من شدة الفرحة وفعل ما أبيه ما فعله مع أمه من لحظات ولأول مره دمعت عينا إبراهيم ...كانت لحظة مؤثرة هزت مشاعر ووجدان كل الحضور

وبعد أن هدءوا قالت أم وليد لمريم :

حبيبتي ..أنتِ ستعيشين معنا هنا وستقومين بوضع الطفل هنا في بيت والد الطفل و جده.. ما نوع الجنين ؟

ابتسمت مريم وقالت : فاطمة إن شاء الله، فرحت والدته فرحا شديدا وقالت : اسم جميل وإن شاء الله تكون مثل فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلي الله عليه وسلم

وأشرقت الشمس من جديد في بيت الأستاذ إبراهيم ودعا جميع بناته بأزواجهن بحضور غداء عائلي ودعا معهم الشيخ سمير ولكنه

رفض.. بحجة انه لقاء عائلي ...

سامح : أخيرا وجدنا ما يسرنا ...لقد كدت أن افقد الأمل

الشيخ سمير : لا تتعجل وتقفز فوق الإحداث

بهت سامح وقال : قالها لي سامي من قبل .. ماذا سيحدث ؟

قال الشيخ سمير : ليس الليلة ..فهي ليلة وتريه ولعلها ليلة القدر سأقوم إلي الصلاة وانتم معي

(١١)

«لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع»

قفزت هذه الجملة إلي رأس مريم بعد أن تذكرت ما حدث بعد الدعوة للبقاء في منزل عمها وزوجة عمها وتذكرت الشخص الوحيد الذي لم يكن مرتاحا لهذا النقل مع أن الجميع قد استبشر خيراً بعد هذه المصالحة التي تمت بين وليد ووالديه ..انه والدها ..تذكرت اللقاء الذي تم بينهما قبل أن تغادر وقال :

ابنتي مريم .. أنا وقفت بجانبك طوال هذه المحنة واحترمت مشاعرك تجاه وليد وحاربت من أجلك ومن أجل وليد ...ولولا أنكِ غالية عليّ وأن وليد رجلا محترما ومستقبله مشرقا لكنت رفضت هذه الزيجة ...إنك الآن في طريقك إلي بيت عمك ...وأنا علي علم به وبشخصيته ، لا تثق فيه أبدا يا ابنتي ..أنا تاجر وأعلم طباع البشر ..ولكن لا أريد أن أخيفك ..فقط احذري ..حاولي أن تكسبي زوجته فهي أصيلة ومحترمه وذات مبدأ ...وأخيرا حاولي أن تحافظي علي اتزانك وهدوءك مع عمك ...

أثار كلامه مخاوف مريم ..لكنها قالت :

إن شاء الله يا والدي لن يحدث شيئا ، أنا متفائلة خيرا ولعل الله هداه ومن الممكن أنه عندما يري حفيدته سيتغير للأفضل ، لعل وجود هذه الطفلة بيننا بُشرة خير ..فمنذ أن علمنا بوجودها ومنحني السعادة في صعود بعد أن كان في القاع ...

والدها اغتصب ابتسامة علي شفتيه وضمها إليه وعيناه شاردة كأنها تبحث عن المجهول الذي لا يعلمه هؤلاء الصغار فمازالوا خبرتهم قليلة بالحياة

****

وظهرت (فاطمة) أصغر حفيدة في العائلة ، كانت ثمرة حب وليد ومريم ، كان الجميع في حالة من البهجة والفرح فهي أول حفيدة في عائلة إبراهيم المنسي من ولده الوحيد أما إبراهيم مازال محتفظ بمرحلة الجاهلية في تفكيره ، فهو يريد حفيده ذَكَراً، لذلك أظهر السعادة ولكن في باطنه غضب داخلي والذي كان يراقبه ويفهمه هو أخوه أسامة والد مريم

وليد أصبح أباً ومسئولاً عن طفلة وظن أن أبواب السعادة كلها فتحت له مرة واحدة بعد أن غُلِّقت لسنوات بعيدة ، لذلك اجتهد في عمله وجدد نيته لأن ينتهي من دراسته.. فالوحيدان اللذان يعلمان بعمله هم مريم ووالدها وأنه لم يخبر ماجد بأي تغيير طرأ عليه ولم يخبره بأنه رُزق بمولود حتى لا يُسئ الفهم أنه يريد أي

زيادة ماليـه..

التي كانـت في قمـة الفـرح والسـعادة هي والدتـه ..ويومـا دعتـه في بيتـه وجلسـوا معـا وكان هـذا الحـوار بينهمـا

الأم: مبارك عليك يا ولدي ..وأنبتها الله نباتا حسناً

وليـد : بارك الله فيـكِ يا أمي الغاليـة ، لقـد تعبـتِ جـدا في الفـترة الأخـيرة، جـزاك الله عنـا كل خـير

الأم : أنا لم أفعـل شـيئا فكنـت أتمـني أن أحـضر فرحـك وأقبـل عروسـك شـأن الأمهـات لكـن قـدر الله ومـا شـاء فعـل والله يعـلم كم أحـب مـريم مثـل باقي بنـاتي وأكـثر

وليد : نعلم يا أمي أن مشاعرك فيّاضة وقلبك رحيم ، بارك الله فيكِ

الأم : اسمع يا وليـد ..الآن أنـت أب وان شـاء الله تُرزق مسـتقبلاً بأطفـال آخـرين .. ولا أريـدك أن تربي أبنـاءك علي مـا تربيت عليـه فقـد أخطـأ والـدك خطـأ العمـر فهـو يحبـك بجنـون غريـب وحـاول أن يمـحي شخصيتـك وكيانـك وهـذا ضـد الطبيعـة البشريـة والسُّـنة الكونيـة، فـكان يريـدك أن تكـون شخصيـة مكـررة له ولكنـك رفضـت ولكـن بعـد أن كـبرت ، بالـرغم مـن الآلام التي حدثـت لنـا إلا أنـني كنـت مـن داخـلي سـعيدة بأن خضـت التجـارب في الحيـاة فبـأي حـال لـن نبـق لـك طـوال العمـر.. وأرجـوا أن تقبـل هديـتي..

أخرجت الأم كيساً أسوداً وملفوفا وقالت :

هـذه هديـة فرحـك وهديـة وصـول فاطمـة ، هـذا نصيبـك مـن المـيراث الـذي ورثتـه منـذ فتره والحمـد لله أن الإرث كان كبـيراً واشـترينا الأرض وقمنـا ببنـاء عمـارة وتم تقسـيم البـاقي عليـك أنـت وإخوتـك البنـات وبـقي لنـا مـا بـقي لتأديـة فريضـة الحـج هـذا العـام إن شـاء الله ، هيـا خـذ سـتون ألـف جنيـه ...انـه نصيبـك

دمـع وليـد وقـام وعانقهـا بحـرارة فقـد عـاد الطـير الصغـير إلي عـش أمـه.. ويعـلم الله مـا في داخـله أن رضـا أبويـه لا تُقـدر بمـال..

قالت الأم : سأقول لك سراً لكن عاهدني أن لا تقوله لأحد

سكت وليد وقال : أعرفه يا أمي.. أعرفه ..

دهشـت الأم مـن رد فعـل ابنهـا وتسـاءلت بينهـا وبـين نفسهـا كيـف عـرف ؟

****

قـال سـامح : إن مـا قصصتـه علينـا الآن يا شـيخ سمير تـدل عـلي أن الأمـور تسـير عـلي مـا يرام ..ولم يتبـق إلا أن وليـد يتخـرج ...ولكنـه تخـرّج مـن الدنيـا ...رحمـه الله ..وهـذا مـا نريـد أن نعرفـه

الشـيخ سمير : قفـزت فـوق الأحـداث يا أسـتاذ سـامح مـرة أخـري حقـا إنـك منـدوب مبيعـات تهـوي النتـائج دائمـا

ضحـك الجميـع لمزحـة الشـيخ الوقـور ثم قـال : يبـدو أن السـعادة في

حياتنا قصيرة الأجل والمدى ، وأن لا أمان في المستقبل وعليك أن ترضي بما قسمه الله لك ، فبعد أن قابلني وليد وأبلغني بالمبلغ الذي أعطاه له والدته وقد أودعهم في البنك وقدرا عرف والده أنه لم يتخرج من الجامعة بعد رغم مرور كل هذه السنوات
قاطعه سامي : وبالقطع عاد لغضبه الجاهلي مرة أخري
أومأ الشيخ سمير برأسه موافقا وقال:

جيد يا د. سامي أنت لم تقفز فوق الأحداث

ابتسم سامي وقال : كنت متوقع أن يحدث أي شئ فدموع والده كانت مثل دموع التماسيح ومن خلال قراءتنا لشخصيته أنه استخدم سلطته مرة أخري ولكن بشكل مختلف ، السياسة الناعمة وذلك لأن البيت ليس من ماله فأراد السيطرة عليهم جميعاً ، علي وليد وزوجته وطفلتهما لكن بشكل أكثر دبلوماسية وخصوصا أنه أصبح متفرغا بعد إحالته علي المعاش

بإعجاب قال الشيخ سمير : إنك رائع يا د. سامي...بالفعل الفراغ بيئة الشيطان .. قام والده باستدعائه وغضب غضبة هائلة والغريب أنه علم بأمر الأموال التي أعطتها له والدته ...وقد قص عليّ وليد ما لم نتخيل أن يحدث

****

علي صراخ والد وليد انزعجت مريم وقامت من علي سريرها

وأخذت طفلتها وخرجت من شقتها ونزلت إلي شقة عمها ..لتجد وليد بين يدي والده وهو يقوم بتعنيفه وحاولت أن تقف حائلا بينهما وقالت في جزع:

ماذا حدث يا عمي ؟

أزاحها من أمامه وقال : أيتها اللعينة ، سرقتي ابني والآن تسرقون أموالنا ..ألم يكفيكم أنكم تعيشون في بيتنا لقد أضعتي مستقبل ولدي، ولدي الذي لم يرسب طوال حياته ولم يتأخر عاما واحدا ، الآن مازال طالبا، إنه أبا وطالبا ..ما هذا العبث ؟ إنها نفس العائلة التي أفسدت حياتي منذ أكثر من عشرين سنه ، تتكرر مرة أخري في ولدي

والدك سرقني والآن أنتِ تشجعي وليد علي سرقتنا.. يا للعار.. قالت مريم بهدوء : عمي ..إننا لم نسرق احد ولم نسرقكم إنها هدية من والدة وليد .. شئت أم أبيت .. غضب والد وليد : هديه !؟

وهم أن يضربها ولكن وقف وليد أمامه وقال : ليس ثانية يا أبي ، لن تمسها فقد علمت كل شئ ...إننا لم نسرقك ولم لن نفكر في ذلك ..إنها خيالات وأوهام أنت من أردت صنعها لتخفي سراً قد علمته ...

سكت والده فجاه ..وأكمل وليد : نعم ..إن عمي أسامة لم يظلمك ، أنت من أخذت ميراثك كاملا بعد وفاة جدي وحاولت أن تشارك في تجارة السيارات مع عمي ولكن في البداية المشروع خسر وظننت

أنـه سرقـك ..فقـد كان في عـثرة مـال ووعـدك أن يعطيـك أموالـك كامـلة وتنسـحب مـن المـشروع وبالفعـل بعـد عـدة سـنوات أعطـاك الأمـوال ..ولكنـك أردت أن تزيـد مـن أموالـك فحاولـت الدخـول في مشـاريع أخـري وفشـلت .. وضاعـت أموالـك مـرة أخـري

فكانـت قصتـك التـي كذبـت بهـا عـلي والـدتي وأنـت صدقتهـا وبقيـت في عقلـك الباطـن أن عمي سرقـك.. وأريـد أن أخـبرك أن أمي ذهبـت إلي عمي منـذ زمـن بعيـد وعلمـت الحقيقـة وكل شئ مقيـد بالمسـتندات والأوراق الموثقـة.. لقـد أضعـت علينـا عمـرا كامـلا في كذبـة..

لم ينطـق والـد وليـد ولكنـه سـقط إلي أقـرب كـرسي وقـال بصـوت مبحـوح : أخرجـوا مـن بيتي إلي الأبـد ...لا أريـد أن أراكم مـرة أخـري

وقفـت الكلمـات في حلقـة ولم يسـتطع أن يكمـل وحـاول وليـد أن يُسـعفه فقـد ظـن أنهـا جلطـة ولكـن والـده دفعـه بـكل مـا بـقي له مـن قـوة وأشـار له بالخـروج

****

سـامح : وبالفعـل خـرج وليـد وذهـب إلي بيـت عمـه وعـادت الأمـور إلي مـا كانـت

الشيخ سمير : لا ..

سامي : ما الذي حدث يا شيخ سمير ؟

الشـيخ سمـير : اتصلـت بي مـريم بعـد عـدة أيام مـن هـذه الحادثـة

وأخبرتني بشئ غير متوقع

كان الجميع مشدود الأعصاب في انتظار كارثة من كوارث والد وليد وصدق حدسهم فقد قال الشيخ سمير :

أخبرتني مريم أن والد واليد اتصل بالشرطة واتهم وليد أنه سرق مبلغا من المال من منزله وجاءت سيارة الشرطة وتم القبض علي وليد .. تنهد الجميع واستشاطوا غضبا من جنون هذا الوالد الغريب الأطوار

(١٢)

" إن هذا ليس أباً ...إنه إنسان غير طبيعي "

كانت صرخات مريم عالية بسب ما ذاقته من جهنم عمها وهكذا

قالت عندما قابلت الشيخ سمير وأضافت :

كيف يصبح الأب جلّاد إلي هذا الحد ؟ كيف يتهم ابنه بالسرقة ؟ هل هذا أباً عاقلاً ؟ هل من المعقول أن يضعوا آلاف الجنيهات في المنزل الذي لم يدخله وليد إلا مرات معدودة ثم يسرقهم ؟ ما هذا العبث ؟

الآن فقط فهمت لماذا حذرني والدي من أخيه ...إن هذا الرجل غير طبيعيا .

حاول الشيخ سمير أن يهدأ مريم وقال لها :

لا تفعلي ذلك بنفسك إن والده مفتون بالدنيا لأقصي حد ويري

الناس من منظار سوء الظن حتى لأقرب الناس إليه وإن شاء الله وليد سيخرج لأنه الله يعلم ثم نحن انه برئ

مريم منتحبة في بكاءها وقالت بصوت مخنوق :

يا شيخ سمير لو الحل أن نترك البيت سنفعل ونرجع أموال والدته سنفعل ، وان نعيش بكرامه في بيت والدي سنفعل ، بيت والدي سيسعنا مرة أخري بدلا من هذا الجحيم ، إنني صبرت علي نظرات والده لي والتي تضعني في موضع المتهمة النصابة السارقة...

ثم بكت مريم من حرقتها.. ومن الظلم التي وقعت فيه ..ثم التقطت أنفاسها وقالت : إنني لم أخبر وليد بأي شئ من هذه النظرات حتى لا أساوره الشك وخصوصا انه لم ينهي الكلية بعد وحتى يكون متفرغا للعمل وللدراسة ولمطالب البيت.. لقد تحملت الكثير.. والده كان يطلب مني أن أغسل ملابسه المتسخة وأقول لنفسي أصبري وأقوم بتنظيفه لأنها ملابس عمي ووالد زوجي.. آثرت الهدوء حتى لا يشتعل البيت بحرائق ليس لها أي داعي

وبعد ولادتي لفاطمة ظننت انه سيتغير إلا أنه يضع انفه في كل شئ.. لماذا تبكي البنت ؟ هيا ارضعيها ..قومي بتغيير ملابسها.. يتعامل معي وكأنني خادمة لديهم في البيت.. أنا خادمة لزوجي فقط.. ولأنني أحب وليد تحمّلت الكثير ...

الشيخ سمير : وكيف عرف بالأموال ؟

مريم : لا أعرف فكل الأمور برمتها حدثت سريعا وبشكل مفاجئ وقد أوصاني وليد بأن لا يعرف أحد حتى والدي ...وبالفعل لم يعرف إلا فضيلتك ..وبالتأكيد والدته لم تفعل ..ومتى هو عرف حتى أبلغ الشرطة وجاءت اليوم وألقت بالقبض عليه ..

ثم انهارت مريم وبكت بكل حرقة فانفعل الشيخ سمير وظهرت علي وجهه علامات الغضب من تصرفات والد وليد الغير مسئوله

****

كانت ليالي رمضان تمر بسرعة الصاروخ ولكن الشيخ سمير أراد الجلوس مع هؤلاء الأصدقاء يوميا حتى ينتهي من سرد ما تبقي من قصص وليد قبل عيد الفطر المبارك لأنه في حالة سفر في هذه الأيام وبعد أن وصل بهم إلي إلقاء القبض علي وليد ..

قال سامح : لقد تخطي والد وليد كل الحدود الإنسانية بأن يلقي ابنه في السجن كذباً وبهتاناً

أدهم : عجيب أمره فعلا لم أكن أتخيل أنه بهذا الشكل فقد كنت أزور وليد بحكم أننا جيران ولم يظهر عليه أي شئ وقد يكون يتظاهر أمامنا بذلك ...

الشيخ سمير : الخوف

سامح : عفوا ؟

الشيخ سمير : الخوف سيد الموقف ، والد وليد كان دائم الخوف من الدنيا والأيام وخصوصا بعد أن فشل في تجارته قديما ولم يقف بجانبه احد علي حسب تصوره فهو خائف طوال الوقت ، من أن يحتاج إلي أحد غير ولده الوحيد ..لذلك أراد أن يكون نسخه مكرره منه حتى يطمئن قلبه أنه لن يبتعد عنه ، فالمال أحيانا يعطى شئ من الأمان في الحياة ، مثل السلطة والنفوذ ..وقد يشتري بالمال السلطة والنفوذ ، وعندما علم بأمر الأموال ظن كعادته السيئة أن هذه هي الخطوة الأولي في الاستقلال عنه فيما بعد وأفرغ غضبه علي وليد بحجة أنه لم تنتهي دراسته من الكلية مع أن هذا طبيعي بسبب الظروف التي مرّ بها...وأن خطته بالاستيلاء عليه كليةَ في طريقها للفشل.. لذلك أراد تأديبه فاتهمه بالسرقة

سامي: كلام منطقي يا شيخ سمير وقد قرأت قصة مشابهه لهذا أن شابا كان خريج كلية الطب وقد أحب فتاه من نفس الكلية ووالده رفض زواجه منها حتى أنه تزوجها في السر ولكن لأن الوالد لدية نفوذ وسلطة أرسل إليهم عدد من البلطجيين لضرب ابنه وزوجته التي كانت حاملا ولم يكتمل الحمل حتى هرب هو وزوجته منه وهاجر بلا عودة، يا ليت فعل وليد ذلك !!

سكت الشيخ سمير وتذكر باقي الأحداث

ذهب الشيخ سمير مع مريم إلي قسم الشرطة وقبل دخولهما إلي باب القسم كان وليد خارجا في صحبة والدته ، ارتمت مريم في حضن وليد وعانقته بشده والدموع كانت تتدفق من محاجر عيون

الجميع ..وسأل عن فاطمة وأجابت أنها عند والدتها.. ركب الجميع السيارة التي استأجرها الشيخ سمير وقالت والدة وليد :

اليوم لم يهدأ لي بال بعد جريمة إبراهيم في حق وليد وطلبت منه أن يحضر معي إلي قسم الشرطة ويحرر محضراً بأن وليد لم يسرق وأن الأموال وجدها ، فقد هددته صباح اليوم بأنني سأطرده من بيتي لأن الأرض والبيت باسمي وليس له أي دخل فيه ، وقد هددت بالطلاق وأنه سيترك البيت بعد ذلك وسأعيش وسط أولادي وأحفادي ولن اسمح لابني الوحيد أن ينام داخل الزنزانة مهما حدث وبالفعل قام منذ ساعة إلا ربع وفعل ما أردت وغادر منذ قليل غير مأسوفاً عليه ، لقد جُنّ هذا الرجل، الفراغ فعل به ما فعل

مريم : شكرا يا عمتي علي ما فعلتيه ولكن استأذنك سنغادر البيت

الأم بصرامة وحزم : لن يحدث ..من اليوم ستتغير الأمور ..إنه بيتي وليس بيته وإذا كان هناك من يخرج فليخرج هو أما أنتم فلا.. يكفي ضياع العمر في كذب وسوء ظن، سأبني فوق سطح البيت حجرة صغيرة بحمام ليعيش إبراهيم فيها بمفرده.. حتى يتأدب كان وليد صامتاً غير مصدقاً للذي حدث ولم يعد يذهب إلي العيادة منذ ذلك اليوم واعتذر بدون إبداء أي أسباب

****

شعرت مريم بمقت هائل يجتاح قلبها لكل سخافات الحياة ، فقد زاد جرح وليد تجاه والده والحياة أظلمت من جديد في وجهه ما أضاع عمله ومذاكرته ولم يؤدي امتحاناته وضاعت هذا السنة لتلحق بغيرها من السنوات الضائعة

حاولت مريم التخفيف عليه وأن هناك حل هو أن يعمل مع والدها في تجارة السيارات مما سيعطيه دخلاً مناسباً وسينتقل للحياة هناك مع والدها وينتهي بكل جديه من دراسته بالكلية العام القادم

فكر وليد في هذه الحلول وذهب إلي الشيخ سمير للنصيحة

****

سامح : بالقطع لن تكون هناك حياة بينه وبين والده مرة أخري فالذي حدث كان أمره عظيما

ماجد : بالقطع لأن الأمر وصل إلي حد فوق الطبيعي وفوق المعقول ولم أتخيل أن هذا حدث ووليد كان يعمل معي دون أن يتكلم.. لذلك لجأ إلي كتابة المذكرات

سامي : من الواضح أن الحل التي قالته مريم كان جيدا وأعتقد أنه كان سيفعله لكن شئ منع كل هذا

الشيخ سمير : نعم إليكم آخر جزء في قصة وليد ...

بعد عدة أيام من حادث الشرطة حاول والد وليد أن يطرد وليد من البيت بأي شكل من الأشكال ..فأصبح لدية أمور شاذة وعجيبة وأشهر شئ هو أن جعل العمال يعملون فوق سطح البيت مساءً !

وذات يوم مريم ذهبت لإعداد ما اتفقا عليه من الخطة السابقة الذكر ...وذهبت لوالدها ووافق بكل ترحاب وعادت إلي المنزل بعد ساعتين وأثناء صعودها وجدت بقع دماء علي السلم

****

تذكرت مريم هذه الليل.. بعد أن رأت بقع الدماء اضطربت وقلقت وزادت دقات قلبا، وقبل أن تفتح باب الشقة وجدت خيطاً سميكا من الدماء، شحب وجها من زيادة الاضطراب ولم تتمالك أعصابها وبعد أن فتحت الباب وجدت وليد غارقا في دماءه وغيبوبته.. صرخت بكل ما أوتيت من قوة ، ونادت علي وليد دون استجابة، في هذه الأثناء صعد والده ليجد المشهد أمامه فاتصل سريعا بالإسعاف ، انتقلوا جميعا إلي المستشفي وسط حالة من عدم التصديق والذهول.. الكل في حالة بكاء ودخل وليد العناية المركزة ليقوموا الأطباء بعمل عملية في الرأس لأنها شبة مهشمه إثر ضربه بقطعه حديدي.. ولم يفلحوا فقد نفذ قضاء الله أبلغ إبراهيم والد وليد الشرطة واتهم العمال بقتل وليد

سامح فغر فاه وقال : معقول ؟ وليد قُتل أكد الشيخ سمير بالموافقة ثم قال : صعد وليد إلي العمال ليخبرهم أن يعملوا في الصباح وليس بالليل احتراما لمشاعر الجيران ولكن يبدو أن أحدهم كان في حالة نشوة من المخدرات فشتم وسبّ وليد وحاول الدفاع عن نفسه ولكن العراك زاد عن الحد مما أدي إلي رفع المطرقة وشج رأس وليد وبعد ما أفاقوا من فعلتهم حملوه إلي شقته وأغلقوا الباب وهربوا.. ثم تم القبض عليهم بتهمة الشروع في القتل وتم سجنهم

سامي : وماذا فعل والده ؟

الشيخ سمير: كان الجميع في حالة انهيار تام فوالدته أصابها الخرس ومريم انهارت أعصابها وبقيت عدة أيام في المستشفي وبعد أن تم دفن وليد.. لم يصدق والده وأصابته أزمة قلبية.. تُوفي علي أثرها ودُفن بجوار وليد ليلتها..

صُدم الجميع من المشهد الأخير وفكر سامي بسرعة وقال :وكأن والد وليد لم يُكمل الحياة بدون قلب ، لأن قلبه كان ولده ...فقد وُلد من جديد بعد ولادة وليد ومات بعد وفاته ...والأعجب أنه دُفن بجواره ليلتها.. سبحان الله !.

كانت تلك الليلة الأخيرة من ليالي رمضان وأن الغد هو أول أيام العيد.. شكر الجميع الشيخ سمير وتفرقوا علي أمل اللقاء مرة أخري

في هذه اللحظة كانت مريم تداعب طفلتها وتضمها بقلبها فقد كبرت قليلا وأصبحت تشبه زوجها وحبيبها وليد ، فكان القدر أحنّ عليها من جميع البشر ورضت بالذي كتبه الله لها ...وستكمل رسالتها بالحياة مع طفلتها ....وتذكرت حلم وليد ...وتساءلت عن أي شئ هذا الحلم ...ولكن لم تفكر كثيراً ...فالحياة لابد أن تسير رغم الآلام ...فالحياة بناء والموت فناء ولا تبقي إلا الذكريات التي هي الواحة التي نلجأ إليها عندما تشتد الصعاب في الدنيا

****

عاد ماجد إلي مذكرات وليد وقرأ الحلم مرة أخري " منذ عدة أيام وأنا أحلم حلماً عجيباً ، وهو أنني أسير في شارع طويل ويشتد ظلامه كلما تقدمت وفجاه وجدت نفسي بلا ملابس تستر عورتي وأن رأسي ينزف والدماء تتساقط علي الأرض وتكبر بسرعة غريبة فأصابني الهلع والخوف وجريت وأن لا أحد يراني بسبب الظلام، ولاحظت أن مريم واقفة علي أحد جانبي الطريق وتحمل طفلة وهي حزينة ، وأمي في الناحية الأخرى صامته والدموع يملأ عينيها، أما والدي فكان يسير بجواري ولكنه لا يراني ولكنني أراه !

حتى وجدت بابا فُتح فجاه وهناك من نادي عليّ فوجدت أصدقائي أدهم وماجد وسامح وسامي، وكأنهم كانوا في انتظاري ، وبسرعة كل قام بعمله

سامي ضمد جرحي الذي في رأسي، وسامح قام بإعطائي ملابس داخلية جديدة ، وماجد ألبسني بدله سهرة كاملة، وادهم وضع لي العطر علي وجهي وملابسي، ورأيت نفسي في المرآة فقد كنت عريساً، وأصدقائي من حولي في حالة فرح وسعادة، وخرجت لأجد الشيخ سمير يمد ذراعيه وعانقني وقال : مبارك يا عريس ..فقد فزت بالجنة لطيبة لقلبك، هنيئا لك السعادة الأبدية بعد ما عانيته من المعاناة والآلام وذقت مرارة الدنيا وصبرت، وبعدها جذبني من يدي لأجد حبيبتي مريم عروسا بوجهها الملائكي كما رأيته أول مره لم استطع أن اخفي مشاعري وقبلتها قبله عميقة «أزاحت أصبع ماجد دمعه هربت غصب عنه بعد هذه الورقة الأخيرة وقد فهمها الآن وقال: رحمك الله يا صديقي

****

قام الجميع لأداء صلاة الصبح وبعدها تجمعوا لصلاة العيد..

وكبّروا الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولله الحمد

وقبل الوقوف للصلاة ...نظر سامي إلي أصدقاءه وتساءل : هل تشعرون بما اشعر به؟ فهم ماجد ما يقصد و لم يفهم سامح ولا أدهم، دمعت عينا سامي وقال: إن روح وليد بجوارنا ابتسم الجميع وحبسوا دموعهم وقال أدهم:

أنا تخيلت به بجوارك إنه يبتسم لنا.. الله أكبر

قام الأصدقاء الأربعة بتكبيرة الإحرام وانفجرت الدموع من محاجرها فرحة بالعيد وبروح وليد التي ظنوا أنها تجاورهم وتصلي معهم

٩٩١٢/ ٢٠١٤ ط١

الترقيم الدولى / ٩- ١٠٠ - ٨٥٤ - ٧٧٩ - ٨٧٩

ڤرات للنشر والتوزيع